





مكتبة
الحضارات
— ٣ —

في الأدب المصري القديم

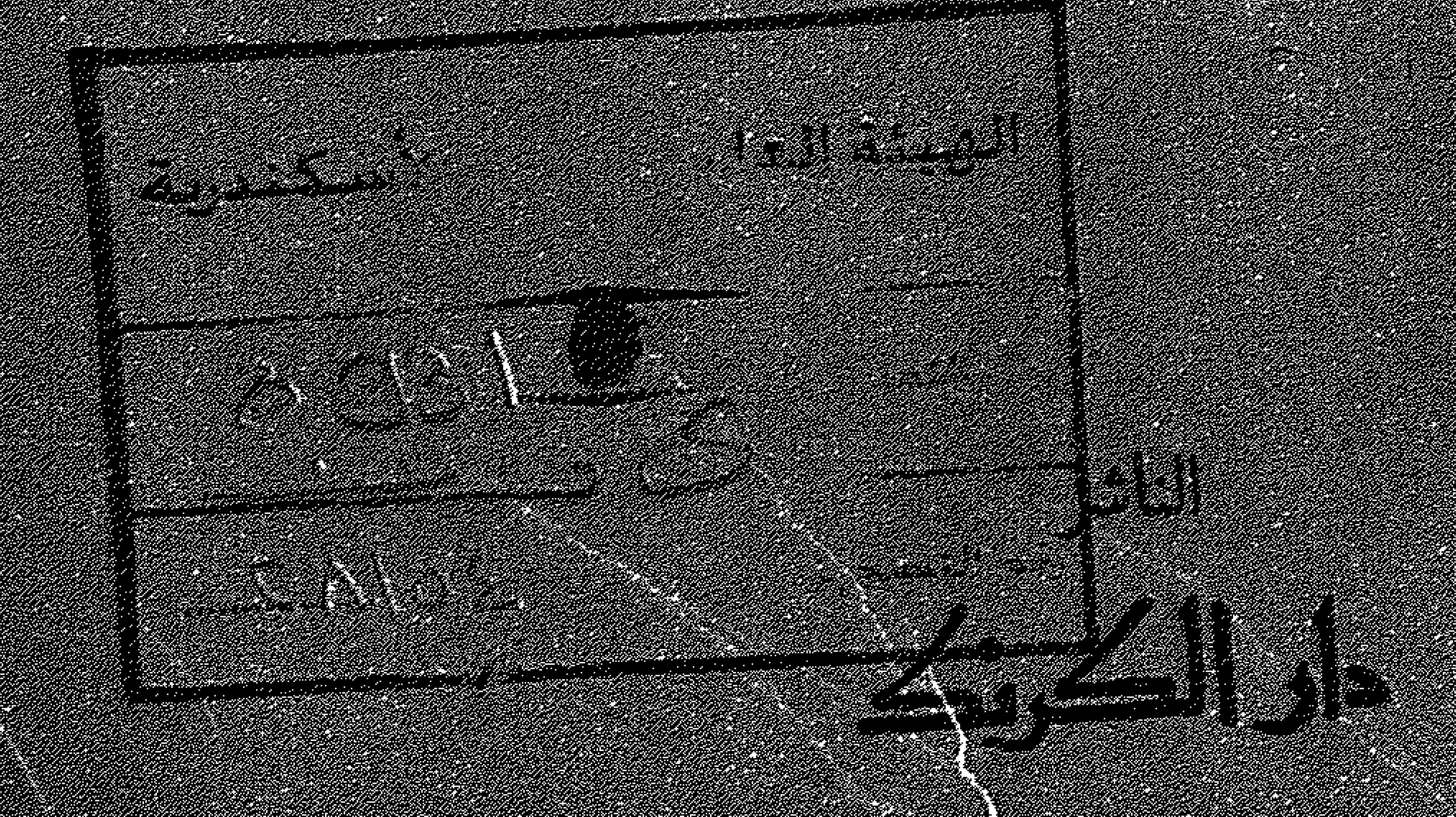
تأليف

احمد عبد الحميد يوسف

تصدير

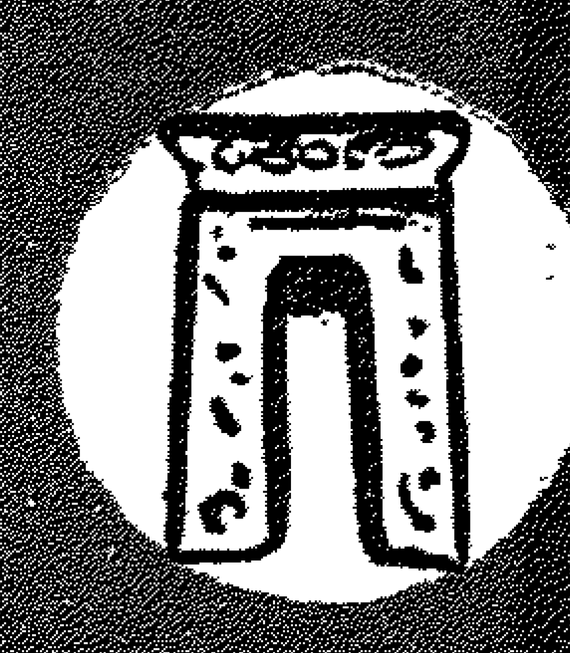
الدكتور محمد أنور شكري





الناشر

دار الكرنك



فى الأدب المصرى القديم

(١٩٦٢)

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، تيسيراً لنشر الثقافة وإسهاماً منها فى التعريف بحضارة مصر القديمة .

مكتبة الحضارات
— ٣ —

فى الأدب المصرى القديم

تأليف
احمد عبد الحميد يوسف

تصدير
الدكتور محمد أنور شكرى

الناشر
دار الكرنك
ميدان رمسيس - عمارة رمسيس

تصدير

بقلم الأستاذ الدكتور محمد أنور شكرى
وكيل وزارة الثقافة والإرشاد القومى

لا يزال أكثرنا تشغله آثار مصر القديمة من أهرامات ومعابد ، ومسلات وتماثيل ، وصور ومناظر شيقة على جدران المعابد والمقابر، عن التفكير فى آدابها ، بل منا ما لا يزال يدهش إن سمع أن مما خلفته مصر من آثار أدبية ما لا يقتصر على النصوص التاريخية والدينية ، وإنما يشمل كذلك أعمالا أدبية جليلة . وما من ريب فى أنه يزداد دهشا إذا علم أننا إن استبعدنا تلك النصوص مما وصل إلينا من آداب المصريين لتبقى بعد ذلك ما يكفى للدلالة على أنهم ضربوا بسهم وافر فى الأدب ، وأنهم لم يكونوا شعبا متدينا فحسب ، وإنما كانوا كذلك شعباً أديبا ، كما كانوا شعباً فنياً .

ويدل ماحفظ لنا من آدابهم على أنهم عالجوا نواحى مختلفة فى الأدب ؛ فقد كتبوا فى المواعظ وآداب السلوك وما ينبغى التخلق به فى الظروف المختلفة . وضمنوها الأمثال والحكم الخالدة على الزمان . وأنشأوا المقالات فى الإصلاح السياسى لعلاج ما تفشى من مساوىء وما حل بالمجتمع من نكبات ؛ وصنفوا الرسائل فى المناسبات والأغراض المختلفة ، فى التهانى والتواصى ، والتمنيات والتراجى ، والتفاضل والمفاخرة ، وفى هجاء الحرف إلا حرفة الكاتب، وغير ذلك من مطالب الحياة ومقاصدها . وحاكوا القصص القصيرة المختلفة ، حتى ليعتقد أن مصر هى موطن القصة القصيرة ، وأن

المصريين أول من أنتجها لذاتها حباً فى روايتها ، وتزجية للوقت . وصاغوا الأناشيد يرتلونها لمعبوداتهم وملوكهم ، ويمجدون بها بعض مظاهر الكون والطبيعة وخاصة الشمس والنيل ، وصنعوا الأغانى يرقصون عليها ، ويتغنون بها لأحبابهم ، بل وزادوا على ذلك كله بأن ألفوا التمثيليات الدينية يمثلونها فى أعيادهم لآلهتهم وملوكهم ، كما لم يفتهم أن يكتبوا فى مسرات صيد السمك والطير .

ومع ذلك فما من شك فى أنه قد ضاع من الأدب المصرى الكثير طوال القرون الماضية ، ويدل على ذلك أنه لم يحفظ لنا شىء تقريباً من أدب الأسرة الثامنة عشرة ، التى ازدهرت فيها الحياة وبلغت فيها الدولة غاية اتساعها ، وما بقى من قصة إله اليم الذى لا يشبع ليشير إلى ماضاع من أدب جليل . يضاف إلى هذا أن من النصوص ما كان يمحى من على البرديات لتكتب مكانه نصوص جديدة ، ومن هذا القبيل قصة الراعى الذى رأى فى الماء امرأة من غير البشر حاولت فيما يبدو أن توقعه فى شراك حبها ، بيد أنه لم يبق منها للأسف غير جزء صغير ، إذ محى أولها وآخرها .

وكانت البرديات المخطوطة منذ الحملة الفرنسية على مصر تشرى من الأهالى وما من شك فى أنهم حصلوا عليها من بعض القبور ، أو مما كان يحيط ببعض المعابد من كيمان أثرية أثناء إزالتها ، أو من التلال المتخلفة عن المدن القديمة عند الحصول على أتربتها لتسميد الأراضى الزراعية بها ، ومن أمثلة ذلك بردية هرست الطبية التى عثر عليها السباخون عام ١٩٠١ فى « كوم البلاص » . ولنا أن نتصور ما يمكن أن يكون قد تلف أو ضاع من برديات أثناء هذا كله .

وكان من الأهالى من إذا وقعت فى أيديهم مجموعات من البردى قسموها فيما بينهم مما أدى إلى ذهاب المجموعة الواحدة إلى أماكن مختلفة ؛ بل لقد

كان منهم من يمزق البردية الواحدة إلى أكثر من جزء ، فينتهى بها الأمر إلى أن تكون فى أكثر من مكان . ولم يكن الشارون يعنون عادة بالسؤال عن المكان الذى عثر عليها فيه ، ولذلك فإنه لا يعرف مصدر أغلبها . ومن البرديات الهامة التى لا يعرف مكان العثور عليها ما فى متحف برلين من برديات قصة سنوهى ، وحوار كاره الحياة مع روحه ، وقصة الأخوين . على أن من البرديات ما يمكن استنتاج مكانها الأصلى من نصوصها ، ومن ذلك بردية أناشيد التاج من أواخر الدولة الوسطى ، إذ تدل نصوصها على أنها من « كيمان فارس » (كروكو ديلوبولس) ، التى كانت عاصمة الفيوم .

على أية حال ، يظن أن مصدر أكثر برديات ما قبل العهد البطلمى فى مصر إنما هو مدينة الموتى غربى مدينة الأقصر ، وأنه عثر عليها فى بيوت الكهنة والموظفين والصناع والعمال ، أو فى بعض المقابر أو فى مخابئ كانت أخفيت فيها فى بعض فترات الاضطراب الداخلى . وإنه ليغلب على الظن أيضاً أن البرديات التى عثر عليها منذ وقت قصير والتى تحمل اسم « تشستربيتى » إنما ترجع إلى دير المدينة غربى الأقصر . ومع هذا فمن البرديات ما عثر عليه نتيجة حفر وتنقيب علمى ، وإن كانت قليلة ، ومنها ما كشف عنه فى بيوت مدينة هرم سنوسرت الثانى فى « اللاهون » عند مدخل الفيوم ، وبعضها يتضمن أناشيد لسنوسرت الثالث واسطورة عن حورس ست .

ولا تقتصر الآثار الأدبية المصرية على قراطيس البردى وحدها ، وإنما منها ما كان يكتب على ألواح من خشب أو لخاف من فخار أو حجر جيرى . وهو فى أغلب الأحيان قطع مختارة من أدب الدولة الوسطى نسخها تلاميذ المدارس فى عهد الدولة الحديثة ، عندما اقتضت ظروفها السياسية الجديدة الاستزادة من عدد الكتاب فنشطت المدارس ، وأخذ

التلاميذ يتعلمون القطع الأدبية الممتازة ، ومن أمثلة ذلك وصية أمنمحات » وشكوى خع خبرسنب ، وتنبؤات نفررحو ، وما يعرف بلوح كرنارفون الذى حفظ لنا من قصه حرب الجهاد ضد الهكسوس أولها، وأكثر اللخاف عثر عليه فى مدينة الموتى غربى الأقصر ، وخاصة فى بيوت الصناع فى دير المدينة وفى المعبد الجنازى لرمسيس الثانى المسمى بالرمسيوم .

يتضح من ذلك كله أن أكثر مالدينا من آثار أدبية من مصر القديمة إنما وصل إلينا صدفة ، ولذلك لا يمكن أن يكون هو كل ما كان للمصريين من أدب ، كما أنه لا ينتظر أن يعطى صورة كاملة عن الأدب المصرى . ولا يمكن كذلك أن يمثل جميع النواحى التى يمكن أن يكون الأدب المصرى قد عالجها ، أو أن يكون أمثلة مختارة منه ، فقد يكون فيما ضاع إلى الأبد أو فيما لا تزال أرض مصر تخفيه مما لم يصل إلينا بعد ، آثار أدبية أخرى لها قدرها وشأنها . يدل على ذلك مثلا أنه كان للملك امنحوتب الثالث كتاب يسمى « كتاب الجميزة والنخلة » ضاع أولم يهتد إليه بعد ، وإن كانت قد بقيت البطاقة الدالة عليه ، وفى هذا وغيره ما يشير من ناحية أخرى إلى اهتمام ملوك مصر بكتب الأدب وحرصهم على اقتنائها . ومع ذلك ففيما لدينا من الأدب المصرى ما يمكن أن يعطى صورة حية متعددة الجوانب ، تفوق فى قيمتها وعددها ماخلفته الأمم التى عاصرت المصريين من آثار أدبية .

وقبل أن نتعرض للكلام عن قيمة الأدب المصرى يحسن أن نتعرف متى بدأ المصريون يصطنعون الأدب . إن أقدم ماحفظ لنا مما كتب من آدابهم إنما هو من عهد الدولة القديمة ، فقد بقى لنا من ذلك العهد نصوص دينية ، هى ما تعرف بمتون الأهرام ، ثم تراجم مختصرة لبعض الأشخاص . على أنه ينسب إلى الدولة القديمة أيضا قصة خلق الإله پتاح للعالم ، وامواعظ

بتاح حتب وكاجنى ، وقصص السحرة ، وبرديتـــا ادون سمث وايبرز الطبيتان ، وإن كانت جميعها وصلت إلينا مكتوبة بخط من الدولة الوسطى أو الحديثة أو العهد الاثيوبى. ويعتقد أيضا أن الروايات التى كانت تمثل فى الأعياد إنما ترجع فى جوهرها إلى الدولة القديمة ، كتمثيلية عيد التتويج المكتوبة على بردية من أواخر الدولة الوسطى . وهنا يصح التساؤل عما إذا كانت كل هذه الآثار من عمل الدولة القديمة حقا ، وعما إذا كانت عصور ما قبل الأسرات فى مصر خلوا من كل أثر أدبى .

ذهب بعض الباحثين إلى أن من متون الأهرام ومن القصص والأساطير ما يمكن أن يرجع إلى عصور ماقبل الأسرات ، بيد أن منهم من ذهب أخيرا إلى أن الأدب المصرى لم ينشأ إلا فى العهد التاريخى ، أى فى عهد الأسرات، معتمدا فى ذلك على أن الكتابة الهيروغليفية فى بداية الأسرات كانت لاتزال فى مراحل تطورها ، وأن كتابات ذلك العهـــد تكاد تقتصر على الأسماء والألقاب ، وأن المصريين إذ ذاك كانوا يسجلون الأحداث متفرقة فى ألفاظ قليلة ، إذ لم يكونوا يعرفون بعد كيف يؤلفون بينها فى رواية متصلة الحلقات وهو أساس القصص والأخبــــار ، وأنهم لم يبدأوا ذلك إلا فى أواخر الأسرة الثانية .

ولكن ألا يكون أدب إلا أن يكون مكتوبا ؟ لقد بدأ المصريون حياتهم جماعات متفرقة ، ومن ثم أخذوا يكافحون قرونا وأجيالا طويلة ، حافلة أيامهم بالأحداث العظيمة ، ومتدرجين من ثقافة إلى أخرى، حتى تم لهم فى مطلع تاريخهم توحيد البلاد فى ظل حكومة رشيدة قوية ، فهل يمكن أن نتصور أن يتم ذلك كله دون أن يحكوا القصص والأساطير عن أبطالهم ومعبوداتهم ؛ يروونها جيلا عن جيل ، وذلك لأنهم لم يكونوا قد اهتدوا

إلى الكتابة بعد؟ وهل يمكن أن نتخيل أنهم بعد أن قضوا الأجيال العديدة خاملين عن اصطناع القصص والأساطير انتفضوا فجأة فاصطنعوا الأساطير العديدة التى تشير إليها فى اقتضاب متون الأهرام ، وذلك بعد أن وفقوا إلى الكتابة ؟

إننا بهذا ننسى أن الكتابة حدث متأخر فى تاريخ الإنسانية ، وأن الإنسانية لا تنتظر حتى تهتدى إلى الكتابة لتتخيل وتفكر وتفلسف ، كما ننسى ما كان للرواية والقصص من شأن فى الأزمنة الأولى .

لقد كان للكتابة شأنها ، ولكن ذلك لم يكن يعدو فى أول نشأتها التسجيل والنشر . أما التصور والتخيل ، والخلق والابتداع ، والرواية والحديث فلا علاقة أصيلة لها بها . لذلك لا بد وأن يكون المصريون فى عصور ما قبل التاريخ قد حاكوا من القصص والأساطير ما كانوا يروونه جيلا لجيل قبل أن يهتدوا إلى الكتابة . وإذا كان لم يحفظ لنا من هذه الأساطير شيء فى بداية عهدهم بالكتابة ، فذلك لأن هذه لم تكن قد استكملت بعد أصولها لتستطيع تسجيل مثل هذه الأساطير ، فى وقت كان لا يزال للرواية سلطانها ؛ ولأن المصريين شغلوا بها إذ ذاك فى تسجيل مطالب الحكومة المتحـــدة بقدر ما وسعته معرفتهم بها .

وهكذا يكون الأدب المصرى نتاج فترة طويلة استغرقت قرونا وأجيالا تزيد كثيرا على ثلاثة آلاف عام ، اختلفت فيها طرزه وأساليبه من عهد إلى عهد . وهو يتميز فى مجموعه ببساطته ووضوحه ، وواقعيته وقصر جمله وسداده وإحكامه ، وهدوئه واتزانه ، وأنه أدب هادف عملى على صلة بالدين لا يرمى إلى التسلية الرخيصة . وفى هذا كله يتردد صدى البيئة التى نشأ فيها وطبيعة منشئيه ، إذ يصور طبيعة مصر ؛ وعادات المجتمع المصرى وأخلاقه

على اختلاف طبقاته ، وذلك فى صورة حية صادقة ، وبتفاصيل شيقة تكشف عن الروح المصرية ، وما تتميز به من دعابة وفكاهة . وفيه تتراءى كذلك أحداث كل عصر ، وتتمثل صفاته وأفكاره بما لا يدع مجالا للشك فى أنه فى ظاهره وجوهره مصرى النشأة والأصل، لم يؤثر فيه عنصر أجنبى دخيل عليه ، فأخيلته وأفكاره ، وأساليبه ومعانيه تنم على تصورات المصريين وعقائدهم، وتشف عن أحاسيسهم ومشاعرهم ، وتنبىء عن تجاربهم وأحداثهم وتحكى عن مخاوفهم وآمالهم ، على نحو ما تفعل ذلك فنونهم وصناعاتهم .

فهناك تراجم الأشخاص فى مقابرهم من الدولة القديمة ما زالت تتطور حتى غدت تصور حياة صاحبها ، وتبرز فى فخر واعتزاز أهم أخباره ، وحديث الملك له ، أو ما كتبه إليه من رسائل . ومن أهم ما حفظ منها تراجم أونى وحرخوف وپبى نخت وسابنى . كما أن مواعظ بتاح حتب وكاجمنى إنما تترجم عن أفكار ذلك العهد الفنى ، فهى توحى بالثقة بالنفس وحب التقدم إذ « لا حد للفن . وما من فنان بلغ غاية مواهبه » ، وذلك ما يتفق أحسن ما يكون وروح الخلق والأبداع التى سادت عصر بناة الأهرام .

وها هى القطع الأدبية من عهد الفوضى والاضطراب فيما بين الدولتين القديمة والوسطى تصور فى أصدق صورة ما انتاب المجتمع المصرى إذ ذاك من نكبات قلبت أوضاعه ظهرا على عقب بعد ذلك الاستقرار المكين الذى كان فى الدولة القديمة ، مما أشاع التذمر واليأس بين المفكرين فانقسموا طائفتين ، طائفة تؤثر العاجلة فتدعو إلى انتهاب اللذات ، وأخرى تؤثر الحياة الفاضلة فتنادى بأسباب الإصلاح . وقد اختار الكتاب على اختلافهم أطرا متعددة صاغوا فيها أفكارهم ، ووصفوا فيها حالة البلاد فى صورة حية قوية بما لا يدع مجالا للشك فى أن هذه الآثار إنما هى وليدة عصرها ، تحمل طابعه ، وتنطق بلسانه ، وتفكر بوحيه فى قوة وجلاء .

فهذا هو إيوور يتقدم للملك العجوز المستكين لحياة الدعة فى قصره.. يستمع إلى أكاذيب رجال البلاط وتمويهاتهم ، ليعلن إليه الحقيقة سافرة ، ويصف له ما يخيم على البلاد من بؤس وما حل بها من نكبات . وما ساد فيها من فوضى أطاحت بسلطة الحكومة وهيبتها ، ويدعوه إلى محاربة أعداء الدولة وإلى العودة إلى عبادة الآلهة ، ومن ثم يبشر بعهد جديد سعيد .

وها هى شكاوى الفلاح الفصيح صيغت فى إطار قصة أجاد فيها مؤلفها وصف ما تعرض له بطلها من اضطهاد وسوء معاملة ، وبلغ بالمحاجة فيها غايتها من الدقة الفنية ، ثم هو لا يلبث أن يسمو بها على الغرض الشخصى فيشيد بالعدل واحقاق الحق ، فتغدو دعوة بليغة للعدالة وتحقيق مطالب الإصلاح فى المجتمع المصرى .

وها هو رجل كره الحياة والعالم الذى يعيش فيه لما يسوده من مساوىء ونقائص . فيروح يصف شوقه إلى الموت . ويظل يغرى روحه بالبقاء إلى جانبه إذا تخلص من الحياة بالموت . إلا أنها تأبى ذلك لأنها تخشى أن يسوء حالها فى الآخرة مع رجل فقير مثله لن يكنه قبر ، ولن يقدم إليه أحد القربان . ومن ثم تدعوه إلى أن ينسى الأحزان ويتبع اليوم السعيد . ولكنه يعود فيصف ما تنوء به البلاد من شرور . ولا يلبث أن يمدح الموت فى إطناب كثير .

وفى الجانب السياسى من وصايا الملك خيتى (؟) نراه ينصح إبنه الملك مريكارع بأن يقتل كل ثائر مدع يجمع من حوله الأنصار يعظمونه . وان يمحو اسمه وذكراه وحزبه الذى يعزه . ولكنه لا يلبث أن يوصيه بأن يكون طيبا مسالما . وأن يخلد ذكراه بحب الناس له . وأن يعلى من مركز مستشاريه ليعملوا وفق أوامره . لأن الثرى لا يتحزب . وهو يعظه بأن يعمل

الحق طالما هو باق على الأرض. وأن يسكن من روع الباكى ثم يحذره من أن يعذب أرملة أو يطرد أحداً من ملك أبيه أو أن يعاقب ظلما . فالانسان باق بعد الموت وسوف تكوم بجانبه أعماله .

وترجع إلى ذلك العهد أيضا أغنية قصيرة جميلة سجلت فيما بعد على جدران بعض المقابر . وهى تصور فناء كل شىء على الأرض وتدعو إلى الاستمتاع بالحياة وترك التفكير فى الموت . فان الشكوى لا تنقذ أحدا من عالم الموت وما من أحد يأخذ متاعه معه أو يعود ممن رحلوا .

ومن الدولة الوسطى تسجل وصية أمنمحات الأول لابنه سنوسرت الأول ، سواء كان هو الذى دبجها حقا أو أن كاتبا ابتدعها على لسانه ، ما يصاحب عادة قيام أسرة حاكمة إثر أسرة أخرى من عداوة مكبوتة . تتحين الفرص لتنتقم ، أو حسد مضمر يحاول أن يحقق أطماعه . وإننا لنلمس فيها مرارة الألم فى نفس المصلح الذى نهض بالبلاد ورد عنها الأعداء وأحال ضعفها قوة ، فلم يلق إلا النكران وسوء الجزاء .

وقصة سنوهى تشير فى بدايتها من طرف خفى إلى حادث داخلى إثر وفاة الملك امنمحات الأول ، وإن كنا لا نستطيع معرفته على حقيقته : وهى بعد ذلك تصور فى صورة شائقة فراره إلى فلسطين وما لاقاه فى الصحراء من نصب وعطش وجوع . وتصف حياته مع البدو وحسن لقاء أميرهم له وزواجه من كبرى بناته ، وتحدى أحد حاسديه له بدعوته للمبارزة واستعداده لها وانتصاره عليه . ثم حنينه إلى مصر وعفو الملك عنه ، ومقابلته له وخشيته منه ، وتعجب الملكة والأميرات من هيئته . وهى فى هذا كله تصف المشاعر والأحاسيس المختلفة ، وتبرز حياة البدو لأول مرة فى تاريخ الانسان . وفضلا عن ذلك فإننا نلمس فيها

اعتزاز سنوهي بوطنه ، وإحساسه بعظمته وسبقه على سائر الأقطار ، ولم يستطع ما وجده فى غربته من حسن المأوى والرعاية أن يخفف من حنينه وشوقه إليه ، وتمسكه بعاداته وتقاليده ، ومازال حتى أتيحت له فرصة العودة فلباها مسرعا تاركا زوجه وأولاده وما ملكت يداه. فإذا بلغ قصره الملك واحتوته قاعته الكبرى ، حدثه الملك فى لطف بما أزال عنه خوفه ، وحل عقدة لسانه .

وإذا كانت قصة سنوهى تصف وعثاء السفر فى الصحراء ، فان قصة الملاح الذى غرقت سفينته تصور ركوب البحر وعوائده ، والحنين إلى الوطن والأولاد . وهى وإن كانت قصة خيالية إلا أنها تعتمد على ما خبره المصريون من زمن طويل فى السفر فى البحار ، وماكانوا يجدونه فيه من مشاعر وأحاسيس .

ومن الدولة الحديثة نشيد أنشودة أخناتون بجمال الطبيعة ، وتصور آلاء الشمس بما يعبر أحسن ما يكون عن مشاعر صاحبها وحبه للطبيعة فى صورها المختلفة . وتصور قصة الأخوين فى بدايتها أعمال الفلاح المصرى فى صورة صادقة شيقة من حرث وزرع وحصد ورعاية ماشية ، وهى كلها أعمال تصورها المناظر على جدران المقابر ، وتعبر عنها النصوص المكتوبة إلى جانبها فى لغة تشبه لغة القصة .

وفى رحلة ونامون من أواخر الدولة الحديثة من الصدق والواقعية ما يجعلها أشبه بتقرير موظف أوفد لجلب الخشب من سوريا ليصنع به زورق أمون المقدس ، حتى إنها لتعتبر مستنداً تاريخياً هاما يصور حالة مصر الداخلية وما أصاب سلطانها خارج حدودها من ضعف ووهن . وهى تقص

رحلته من طيبة إلى جبيل، وما تعرض له فيها من مخاطر مختلفة قابلها برباطة جأش . ومما له مغزاه أنه تتراءى في هذه القصة وفي غيرها من أدب الدولة الحديثة قصص الاستيلاء على يافا ، والأخوين ، والأمير المحتوم، والرسالة التهكمية التي كتبها حوري إلى امنموبي ، ظروف مصر الجديدة واتصالها بسوريا وغيرها من الأقطار الشرقية ، وما أدى إليه ذلك من اتساع آفاق النظر والتفكير .

ومواعظ آني وإن كانت تترسم خطى المواعظ المصرية القديمة ، إلا أنها تنم على روح الدولة الحديثة . فهي تنصح بالتواضع والرضا والصمت والخشوع، والتروي والاعتراف بالجميل . ومن وصاياه « ادع بقلب محب ، ولفظ خفي ، ليستجيب الله ما تدعو إليه ، ويصغي إلى ما تقول » .

وقد خلفت الدولة الحديثة من الأغاني ما يتميز بتنوعه وجدته مما كان يغنيه الفلاحون والرعاة والعمال وكذلك المغنون في حفلات الشراب . على أن أهمها جميعا أغاني الحب لجمال ما تفيض به من عاطفة سامية مهذبة ، وما تصوره من مناظر الطبيعة الجميلة ، بما فيها من شجر وزهر ، وماء وطير .

عدا هذا كله لا تخلو بعض القصص المصرية من أشياء خارقة للطبيعة ومن أعمال السحر بما يتفق وعقائد المصريين ، ففيها من السحرة من يصطنع تمساحاً صغيراً من الشمع ، فإذا تليت عليه تعويذه استحال إلى تمساح كبير يلتهم رجلا ، أو من يشق بحيرة فيرفع نصف مائها فوق النصف الآخر ليلتقط حلية من الفيروزج سقطت فيها ، أو من يلحم رأساً انفصلت عن جسدها : وفيها كذلك من الأشخاص من يتحول حيوانا أو نباتا ، ومن يسحر قلبه ويستخرجه من جوفه دون أن يموت ، كما أن فيها من الحيوان ما يتكلم .

ومن القصص مايتضمن كذلك أسماء بعض ملوك مصر أمثال سنفرو وخوفو وتحوتمس بما كان يكسبها حياة تزيد فى أهميتها وتضفى عليها مسحة من حق لما تثيره هذه الأسماء الشهيرة فى أذهان القراء والسامعين من ذكرى أصحابها الأمجاد ، الذين كانت أخبارهم تتواتر من جيل إلى جيل . ولم يكن هذا يختلف كثيراً عن تضمين تراجم المصريين أسماء الملوك الذين عاشوا فى عهودهم وفى بعض الأحيان رسالة من مالك ، وما كان أفضلها من وسيلة لإبراز أهمية الشخص وماناله من شرف رفيع .

خلاصة هذا كله أن ما حفظ من آداب المصريين إنما كان من إنشائهم ، ووحى ظروفهم وملابساتهم ، وأنه يسجل أفكارهم ووصاياهم ، وينطق عن عاداتهم وأحوالهم . ولنا أن نسأل بعد ذلك عما إذا كان له من الصفات الأدبية مايرفع من شأنه ويسمو بقدره .

لا جدال فى أن لكل كلمة مسموعة أو مقروءة صوتا ملفوظا له وقعه فى الأذن ، ومعنى ملحوظا له تأثيره فى النفس . وليس يخفى أن القيمة الجمالية لأى أدب إنما تتوقف على جرس عبارته ومعناها فى وقت واحد وما يمكن أن تثيره فى نفس السامع أو القارىء من معانى وأحاسيس . وصوت كل لفظ إنما يعتمد على مافيه من حروف وحركات . على أن الكلام باللغة المصرية قد بطل منذ قرون عدة ، وبذلك لم تعد ألفاظها تثير فى نفوسنا الأخيلة والأحاسيس التى كانت تثيرها فى نفس المصرى القديم ، بل لا تزال صيغ الكثير من هذه الألفاظ ومعانيها الصحيحة مغلقة علينا ، لا نكاد نعرفها إلا غامضة مبهمة ، وهو مايرجع إليه اختلاف ترجمة الأدب المصرى اختلافا غير يسير . يضاف إلى هذا أن الحركات لم تكن ترسم على الحروف ، وبذلك لا يعرف نوعها أو طبيعتها ، بل من الحروف نفسها ما لا يزال يشك فى صحة نطقه . ولذلك كله فانه من غير المستطاع

إدراك ما فى الشعر والنثر من وزن ونغم إدراكا صحيحاً . ولا ينبغى أن يفوتنا أيضاً أن أكثر الأدب المصرى إنما جاءنا منسوخا بأيد غير عليمة ، ولذلك فهو حافل بالأخطاء الكثيرة . لهذا فما من أحد مهما بلغ علمه فى الوقت الحاضر باللغة المصرية يستطيع أن يتذوق ما فى الأدب المصرى من جمال بحيث يزعم أنه أهل لتقدير الأدب المصرى حق قدره والحكم عليه حكما صحيحاً .

ومع ذلك فما من شك فى أن المصريين كانوا يعلون من شأن الكلام البليغ الجميل ؛ والأدلة على ذلك كثيرة ، فقد كانت الأقوال والحكم المأثورة هى التى رشحت كاجمنى لأن يكون مشرفاً على العاصمة ووزيراً ، وسمى الحكيم بتاح حتب مواعظه « المقولات الجميلة » ووصفها بأنها « لتعليم من لا يعلم العلم والكلام الجميل » ؛ ومن أمثاله فيها: « الكلام الجميل أخفى من الزمرد » . وجاء على لسان سنفرو فى تنبؤات نفررحو « آتونى بمن يحدثنى بكلام جميل وأحاديث مختارة ليبتهج قلبى بسماعها » . وفى وصايا الملك خيتى الأول (؟) لابنه الملك مريكارع « كن فنانا فى الكلام لتكون قوياً فإن قوة (الرجل) فى لسانه . وإن الكلام لأقوى من أى قتال » . ومن أمثال المصريين أيضا « إن فم الإنسان ينجيه وكلامه يدعو الناس إلى احترامه » . وكانوا يصفون الرجل الفصيح بأن « كل ما يخرج من فمه مغموس بالعسل » .

وعلى ضعف درايتنا باللغة المصرية ونطقها فإننا نشعر مع ذلك بما تتميز به بعض القصص من أسلوب جميل رشيق ، هادىء رزين . بل إن من النصوص الدينية والتاريخية والتراجم المسجلة على جدران المعابد والمقابر ما ندرك بأنه يسمو فى بعض أجزائه وفصوله إلى مرتبة الأدب الرفيع . وإذا كنا نضيق الآن بما نجده فى كثير من النصوص الأدبية من تكرار ، فما كان ذلك ليضيق به الإنسان القديم . ولعله كان فى الأصل خاصة من خصائص الرواية ، كان يستعين به الراوى على تذكر أحداث ما ينشىء أو يروى ، كما كان يعين

السامع على تذكر ما سبقت روايته ثم هذه بعد ذلك من أفانين الكلام .

ومهما يكن من أمر ، فليس من ريب فى أن شكاوى الفلاح الفصيح تمتاز بفصاحتها وحسن تعبيراتها ، وما تتضمنه من أخيلة وتشبيهات ، وحكم وأمثال ، بما جعل الملك كنص الرواية يستمتع بها فيرجىء انصاف صاحبها استزادة من بلاغته حتى أكلها من الشكاوى تسعا ، وفى استماع الملك لها والاستزادة منها تعظيم من شأن البلاغة . ووصية أمنمحات الأول وإن كانت حافلة بأخطاء النساخين من التلاميذ إلا أنه لا يخفى أسلوبها الرشيق وما فيه من جمال وجلال . وها هى قصة سنوهى التى عدها بعض الباحثين ومشاهير الكتاب العالميين من الأدب العالمى الرفيع ، ذلك لأنها « تقص فيما يقرب من ثلثمائة وخمسين سطراً حياة حافلة بالمخاطر ، وتصور شخصية بمهارة بالغة غاية الكمال . ففيها نرى سنوهى مروعا ، فمحارباً واثقاً بنفسه ، فتوسلا خاشعاً ، ثم مرة أخرى وقد تملكته الرهبة فى حضرة ملك مصر . وفيها دعابة وعاطفة ، ومبالغة وإطناب أيضاً — ولم لا وقد كانت المبالغة من السمات المصرية الأصيلة » . وهكذا كان أدب عهد الانتقال الأول والدولة الوسطى يعنى بالفصاحة والبلاغة ودقة التأليف وحسن العرض وجودة الوصف، حتى إن المصريين اعتبروه الأدب المثالى وطفقوا يحتذونه ويترسمون خطاه .

وأنشودة أخناتون تتميز بعباراتها الحرة الطليقة ولغتها البسيطة ، كما تتميز رحلة ونامون بما تشتمل عليه من أحاديث رصينة ، ووصف شائق يرسم صوراً حية ، ومن ذلك وصف المقابلة مع أمير جبيل وهو جالس فى قاعة علوية يتكىء بظهره على شرفة ، بينما تتلاطم أمواج البحر السورى من خلفه ، وهى بذلك كله تعد من غرر الأدب المصرى ولا تقل قيمتها الأدبية عما لقصة سنوهى من قيمة . وأغانى الحب تعتبر من أهم ما ساهم به

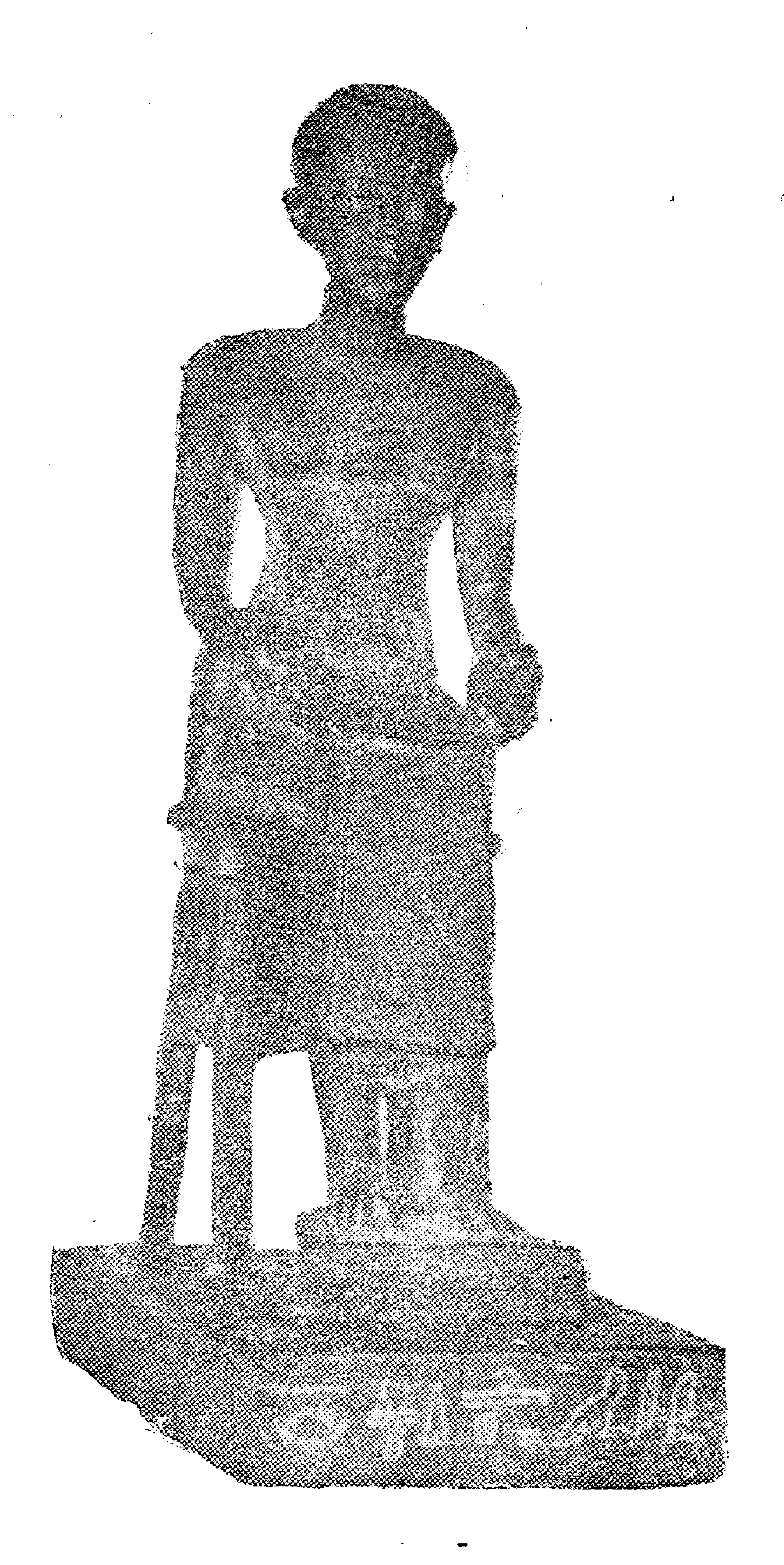
المصريون فى الأدب العالمى ، حتى لقد قيل أن «مينيه» نفسه كان يمكن أن يكتبها ، فقد أجيد فيها التعبير عن أحاسيس الحب فى لغة عذبة طلية ، لا نزال نلتذ بقراءتها للآن ، ونطرب بما فيها من وصف وتمجيد للطبيعة . وهكذا يتميز أدب الدولة الحديثة بتعابيره البسيطة وخلوه من كل تنميق وزخرف بلاغى ، وحسن قصة للأحداث فى أسلوب واضح مستقيم .

وكان الأدب المصرى يقرأ ويدرس للشبان فى المدارس ، وكان التلاميذ والطلبة ينسخونه لتقويم ألسنتهم وتعليمهم الفصاحة والبلاغة ، وإن كثرة ما حفظ من منسوخاتهم منه فى عهود مختلفة ليدل على ما كان له من شهرة ويشير إلى مدى تعلق المصريين به . ومما لا يخلو من مغزى ما تدل عليه مقدمة قصة الفلاح الفصيح من أنها قصت للترفيه عن أحد النبلاء وإعادة الثقة إلى نفسه ، وبهذا كان من آداب المصريين ما لم يكن الغرض منه خدمة الدين أو السياسة ، أو غير ذلك من أغراض ، وإنما المتعة الأدبية وحدها ، وبذلك كان المصريون أول من كتبوا فى الأدب للأدب ذاته . وقد يشرح اهتمام المصريين للأدب وتقديرهم له أنهم جعلوا تحوت إلها للكتابة ووصفوه بالحكمة والخبرة وأنزلوه مكانة عليا بين سائر الآلهة .

أضف إلى هذا أنهم ما زالوا بأمحوتب أكبر موظفى الملك زوسر ، إلى أن سموا به إلى مصاف الآلهة لا لما أسندوه اليه من براعة فى الطب والهندسة فحسب وإنما لبراعته فى الأدب أيضاً ، وإن كانت لم تحفظ لنا أمثاله وحكمه، ثم هل هناك أدل على تقدير المصريين لرجال الأدب مما جاء فى إحدى برديات الأسرة التاسعة عشرة عن مؤلفى الأمثال والحكم من أنهم «لم يشيدوا لأنفسهم أهرامات من نحاس أو نصباً من حديد ، ولم يتركوا أبناء ورثة ليخلدوا أسماءهم ، وإنما خلقوا لهم ورثة مما ألفوه من كتب ومواعظ . إن الكتاب لأنفع من نصب مكتوب وقبر (ثابت) . إنهم خلقوا لأنفسهم القبور

والأهرامات فى قلوب من يذكر أسماءهم ، وإن إسما تتداوله أفواه الناس لنافع فى الآخرة ، إن الإنسان فان وجثته هباء ، وجميع معاصريه يغدون ترابا ، ولكن الكتاب هو ذكراه الذى يبقى من فم إلى فم . إنه لأنفع من بيت مشيد ، ومن قبر فى الغرب ، ومن قصر مدعم ، ومن نصب فى معبد » .

فإذا كان الأدب المصرى وتقدير المصريين له على نحو ما وصفنا ، فهل ظل حبيسا فى موطنه لا يؤثر فى غيره من آداب ؟ لقد كان لمصر بفلسطين صلات قوية منذ أزمنه بعيدة ، يؤيدها ما كشف فيها من آثار مصرية . وكانت العلائق وطيدة بينهما كذلك فى عهد سليمان فى القرن العاشر قبل الميلاد ، وهو العهد الذى بدأ يزدهر فيه الأدب العبرى ، وما من شك فى أنه تأثر كثيرا بالأدب المصرى ، حتى إن من التوراة ما يحملنا قسرا على مقارنته بما يماثله فيه . لقد عرفت مصر أدب الموعظة والحكمة منذ الدولة القديمة على الأقل ، وإذن فهو فيها أصيل ، وكانت له فيها مكانة مرموقة إلى وقت متأخر من تاريخها القديم . وإننا لنجد صدى هذا الأدب قويا فى أمثال سليمان ، بل إننا لنجد فى وصايا أمنموبى ما يماثل فى أفكاره ومعانيه ما ينسب لهذا النبى الكريم ، ففى كل منها تحذير من ظلم الفقير ، ومصاحبة سريعى الغضب ، ونقل علامات الحقول ، والسعى وراء الغنى ، كما أن كلا منهما ينصح بآداب السلوك على المائدة . وفى أسفار الأنبياء فى العهد القديم ما يشبه وصايا الكتاب وتحذيراتهم من عهد الانتقال الأول فى مصر ، وإن كان يختلف عنها فى غرضها ، وسفر أيوب يشبه حديث كاره الحياة مع روحه وبراءات الموتى . وفى مزامير داود ما يشبه كثيرا نشيد أخناتون حتى إنه ليمكن المقابلة بين بعض فقراتها . ويذكرنا الجزء الأول من قصة الأخوين بقصة يوسف وزوجة فوطيفار فى سفر التكوين ، وإن كان يمكن ألا تكون بينهما صلة ما ، فموضوعها يمكن أن ينشأ فى أى زمن وأى مكان .



وزير الملك زوسر رأس الأسرة الثالثة ، حكيم رفعته حكمته إلى مصاف الآلهة فى عصر البطالمة وسواه الأغريق بمعبودهم اسكلبيوس .

ولا يظن أن الأمر كان يختلف عن ذلك بالنسبة لآداب الأمم الأخرى فهناك ما يدل على أن قصص عيسوب وغيرها فى القصص الأغريق ومايعتمد عليها من قصص أوروبى حديث إنما يرجع فى جوهره إلى أصول مصرية قديمة ، وإن لم يحفظ من القصص المصرى على لسان الحيوان والنبات شىء يذكر ، غير أنه ما من شك فى أنه كان لمصر منها منذ زمن طويل ذخيرة طيبة . علاوة على هذا لقد وجد الأدب الدينى المصرى والطقوس الدينية والجنازية سبيلها أيضا فى العصور المتأخرة إلى بلاد الأغريق والرومان ، وكان واسطة ذلك الأغريق فى مصر . وما من ريب فى أن الأدب المصرى عامة كان له تأثيره كذلك فى الأدب الإغريقى ، وإن كان من الصعب ترسم ذلك . ومهما يكن من أمر فانه مما لا يكاد يتطرق اليه الشك أنه لولا الأدب المصرى لما كان الأدب العبرى ولا الأدب الأغريقى على نحو ما نعهدهما ، وفى الأدب العربى تذكرنا قصة كل من السندباد البحرى وعلى بابا ، ونور الدين على وبدر الدين حسن بقصة الملاح الذى غرقت سفينته، وقصة الاستيلاء على يافا وقصة الصدق والكذب فى الأدب المصرى . ولقصة الأخوين وغيرها ما يشبهها فى بعض أجزائها وتفاصيلها فى آداب بعض الأمم والبلاد الأخرى ومنها الحبشة والهند وآسيا الصغرى وروسيا والمجر وإيطاليا وألمانيا وفرنسا وغيرها . ومهما يكن من أمرها جميعا ، وما قد يكون بينها من صلات ، فانها فى مصر أقدمها جميعاً .

* * *

و بعد فإن هذا كتيب فى الأدب المصرى القديم ، لمؤلف شاب حظى من التعليم بنصيب وافر ، فقد تخرج فى قسم التاريخ فى كلية آداب جامعة القاهرة ثم فى معهد الآثار المصرية ، ولم يقتصر حظه فى الدراسة على التعليم الجامعى وحده ، وانما اعتمد أكثر ما اعتمد على دراساته واطلاعه الخاص ، فكان حظه منهما أوفى كثيرا مما تلقاه فى الجامعة ، مما ميزه بحق على سائر أقرانه وإخوانه . وقد أهلته لذلك طبيعته الباحثة الواعية التى لا تكل عن البحث والاستقصاء ، والتى لا تكاد تفلت منها شاردة أو واردة وقعت عليها عينه أو طرقت سمعه . وهو فوق ذلك أديب مطبوع ، يمتاز بما يكتنزه من حصيلة كبيرة من الأدب ، لا أعرف كيف ومتى حصلها لنفسه . على أنه ما من ريب فى أن ذاكرته الواعية قد أفادته فى ذلك كثيرا ، فهو سريع الملاحظة قوى الحافظة ، وهو مع ذلك أيضا بارع الأسلوب ؛ متين العبارة . يحسن تخير الألفاظ ، ويجيد سبكها معا بما يتفق والمعنى المراد ، ولعله لو قسم له أن يتفرغ للأدب لكان وهو فى هذا السن الشاب من أبرز الأدباء وأحسنهم أسلوبا ومادة .

بيد أن الأقدار اختارته لتاريخ مصر وآثارها ، لحب فيه عارم لتاريخ بلاده وحضارتها . وعلى صعوبة الدراسات الأثرية ومطالبها فقد ضرب فيها بسهم وافر يهيؤه لأن يكون أحد المبرزين فيها . وقد سبق أن ترجم لبعض الشخصيات المصرية القديمة فأجاد العرض والاستقصاء فى صورة بليغة جميلة قلما نجدها فى كتابة التاريخ والأخبار.

وما هو كتيب فى الأدب المصرى القديم ، أعده فى سويعات فراغه من عمله ومشاغله ، فأحسن فيه العرض والوصف ، وألم فيه بكثير من الأصول والفروع ، بما يكفل للقارىء صورة واضحة عن أدب المصريين فى أزمنتهم القديمة ، وقد جعله من قسمين ، القسم الأول روى فيه قصة هذا الأدب وصف فيه فى إيجاز واختصار طبيعة وادى مصر الذى كان « معين الفكر ، ومستودع الثقافات ، ومنبعا لأقدم الحضارات » ، ثم لم يلبث أن عرج يصف أحوال سكانها وأخبارهم ، وتطور لغتهم وما حفظ من تراثهم الأدبى خلال فترات تاريخ مصر القديم . فإذا انتهى من ذلك أفرد القسم الثانى لمختارات اختارها من هذا التراث ، أحسن إبرازها حسب عصورها المختلفة ، مقدما لها ومعقبا عليها بما يشرح بعض خصائصها وسماتها فى صورة مركزة وافية ، تغنى عن كل تقديم .

أنور شكرى



الـكاتب

من أعز ما اتخذ المصريون من لقب ومهنة

(١)

قصة هذا الأدب

(١)

هــذا الإقلــيم

مصر

بقعة خصها الله وفضلها على كثير مما خلق من بقاع الأرض تفضيلا .
وقعت موقعا ممتازا فكانت مركز العالم القديم، وأطلت على بحرين شهدا
من تاريخ الإنسانية القدر العظيم
من إفريقية كان أكبر أجزائها .

وأسهمت فيها آسيا بسيناء فى شرقها .
وأطلت على أوروبا من نافذة الأخضر العظيم .
كما سمى البحر أجدادنا فى القديم .

ولم يكن البحر فاصلا ولا حائلا ، بل كان حلقة اتصال وطريقا سهلا لم يصعب على الأقدمين ، ولا على آبائنا الأولين . وامتاز الأبيض المتوسط بما امتد بين ساحليه من جزر أعلامها قبرص وكريت ، كانت كالجسر . يغرى بالابحار ، والاندفاع فى الأسفار .

وإن الله ليقسم الحظوظ ويفرق الأرزاق بين البلاد، كما يقسمها بين العباد.
كانت معين الفكر ومستودع الثقافات ، ومهدا ومنبعا لأقدم الحضارات.
ومنها خرجت الأديان وفلسفة العقائد قبل أن تنزل الكتب ويبعث الأنبياء
ثم كانت من بعد مدرسة لما تنزل من الرسالات وأديان السماء .



لخافة من حجر الجير، كانت من مواد الكتابة عند المصريين الأقدمين

كانت على الخالين من وثنية وإيمان كعبة القاصدين ومنهل الدراسين .
على أرضها كلم الله موسى وبعثه لهداية العالمين .

وأقبل عليها يسوع فى المهد وكانت به أسبق المؤمنين .

ثم صارت آخر الأمر ، حصن الإسلام ومعقله الحصين .

وسبحان ربك الأكرم ، الذى أنبت فى مصر القرطاس والقلم ، وجعلها المدرسة التى فيها علم الإنسان بهما ما لم يعلم .
إذ تأذن لأهلها فجعلهم أول من يكتبون ، وعنهم أخذ الناس القلم وما يسطرون .

(٢)

طبيعة البلاد وأثرها فى المصرى

وهى بقعة بسيطة لم تزد عن أن تكون صحراء شاسعة ممتدة تكاد تخلو من التلاع والحزون ، توحى فى امتدادها هذا البعيد وما يشملها من سكون غامر يقر فى النفس الروعة والرهبة بمعانى الاستقرار والخلود ، ويخطها نيل « مبارك الروحات ميمون الغدوات، يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر » فى واد خصيب أنشأه من طميه على مر العصور وانقضاء الدهور .

ولقد كان النيل للمصريين منبع الحياة ومصدر الخير . فلا جرم أن يقدروه فيعبدوه ،ويضبطوا له موعدا ليستقبلوه ، لذلك نرى تقلب وجوههم فى السماء والنظر فى النجوم، فكان أبا للتقويم ومساحة الأرض والحساب، فاذا هو كذلك من مصادر المعرفة ومنابع العلوم .

وجدوا أول بشائر الفيض تطلع بالمياه الحمراء عند رأس الدلتا مع بزوغ نجم الشعرى اليمانية قبيل الشروق . فحسبوا ما بين بزوغها وبزوغها بخمسة وستين وثلثمائة يوم . كانت عندهم أمد العام . ثم جعلوا عدة الشهور فيه اثنى عشر شهرا من أيام ثلاثين . ثم قفوا عليها بخمسة أيام نسيئا .

وكانت فصول العام ثلاثة حتمها كذلك النيل :

فصل الغمر إذ الأرض تحت الفيض الغامر .

وفصل البروز حين تبرز الأرض بعد نكوص النيل وانحسار مائه فيكون البذر والزرع .

ثم فصل الحصاد حيث يجنون ثمار ما زرعوا .

وكان النيل بالنسبة للبلاد كالشريان الذى يجرى فى جسم واحد. بفضله ترابطت أعضاؤه وتواصلت أجزاؤه . وكان طريقا مهد لأبنائه سبيل التنقل والأسفار . وسلكهم فى سبيل التعاون والاتحاد ، حين يجتمعون عليه لصد فورة مائه ، أو للاستقاء منه بحفر القناة وشق الخليج .

وشمس وضاحة سافرة أبدا تشرق من سماء صافية قل أن تتبرقع بالسحائب والغيوم . وترى الشمس إذا طلعت تجلى كل شىء واضحاً صريحا فى غير ظلال تثير الخيال بالتشبيه والتأويل . إذ لا تكاد الأصباغ والألوان تبدو عند مشرقها حتى يبددها ضوؤها الساطع الباهر ، فاذا كل شىء سافر على حقيقته . وإذا غربت لم يلبث الغسق إلا قليلا حتى يجن الليل البهيم . فكان أن طبعت نفس المصرى لهذا كله بالصراحة والوضوح . وعقله بالتصور المادى والواقع الملموس .

وكذلك فان ما انقسمت اليه طبيعة مصر من عناصر متناظرة أثره فى المصرى من حيث التفكير والتعبير، فالنيل يشق الأرض أرضين متشابهتين فى شرق وغرب ، حيث يجد كل عنصر من عناصرها ما يقابله ويناظره . ويتطلع المصرى إلى طبيعة بلاده فاذا ضفتان متقابلتان وسهلان متشابهان يكتنفهما من الجبال سلسلتان متماثلتان وصحراوان متناظرتان . فأصبح المصرى لا يكاد يفكر فى شىء أو يتصور شيئا إلا وجعل له نظيرا يقابله وندا يماثله . فآمن بوجود الآلهة وجعل لها أزواجا ، وتصور مع العالم الذى

يعيش فيـه والسماء التى تظله عالما سفليا وسماء من تحته تقابلهما . وانطبع أسلوبه فى الأدب والفن بذلك ، فأحب التماثل والمقابلة ، والجمل المتشابهة والألفاظ المترادفة .

وجو فيه اعتدال كان من حوافز الـكد والنشاط ، وإن مال الحر والجفاف فيه إلى الرجحان . وكان كذلك من بواعث التفـكير فى البقاء والخلود . لأن الرمال الجافة قد وقت جسوم موتاه وآثارهم وحفظتها من أن يسرع اليهـا التحلل والفناء . ومع ذلك فقد كان يخفف من قيظ الصيف ولفح حره ريح تقبل من الشمال من قِبَـلِ البحرِ ، أحبها المصريون وعدوها من متع الدنيا والآخرة .

ومهما يكن من شيء ، فقد كانت الشمس والنيل أقوى عناصر الطبيعة فى حياته وخياله ، وتصوره وعقائده ، وفى الإيمان بالرجعة والمعاد ، كلاهما له فضل لا ينـكر على الحيـاة والأحياء ، وكلاهما تجرى عليه آية التجدد والنشور . وقد بلغ من تقدير المصريين لهاتين الآيتين أن رفعوهما إلى مرتبة الألوهة والتقديس .

وفضلا عن هذا كله ، فان ما تركه لنـا المصريون من الأغانى والأناشيد ليـكشف لنـا عن تأثر بالطبيعة ، وشعور حى بجمالهـا واحساس بمظاهرها ومناظرها ، ولقد بلغ ذلك غايته فى أناشيد أخناتون ، التى تنطق عن حس مرهف وشعور قوى .

(٣)

المصرى من البداوة إلى الحضارة

لم تكن مصر ولا كان العالم منذ العشرات الكثيرة من آلاف السنين كما نعهدهما منذ اليوم ، فقد أتى حين من الدهر كان شمال إفريقية فيه رطبا تهطل فيه الأمطار . لذلك فقد كان يكسو وجه الأرض فيما يكتنف وادى النيل من هضاب ـ حيث الصحارى الآن ـ غطاء نباتى من حشائش وأشجار وكان أن عاشت فى تلك البيئة المطيرة العاشبة أنواع كثيرة وفصائل مختلفة من الحيوان ، كالظباء والوعول والأرانب وحمر الوحش والزراف والنعام ومن كواسر السباع الأسود والفهود .

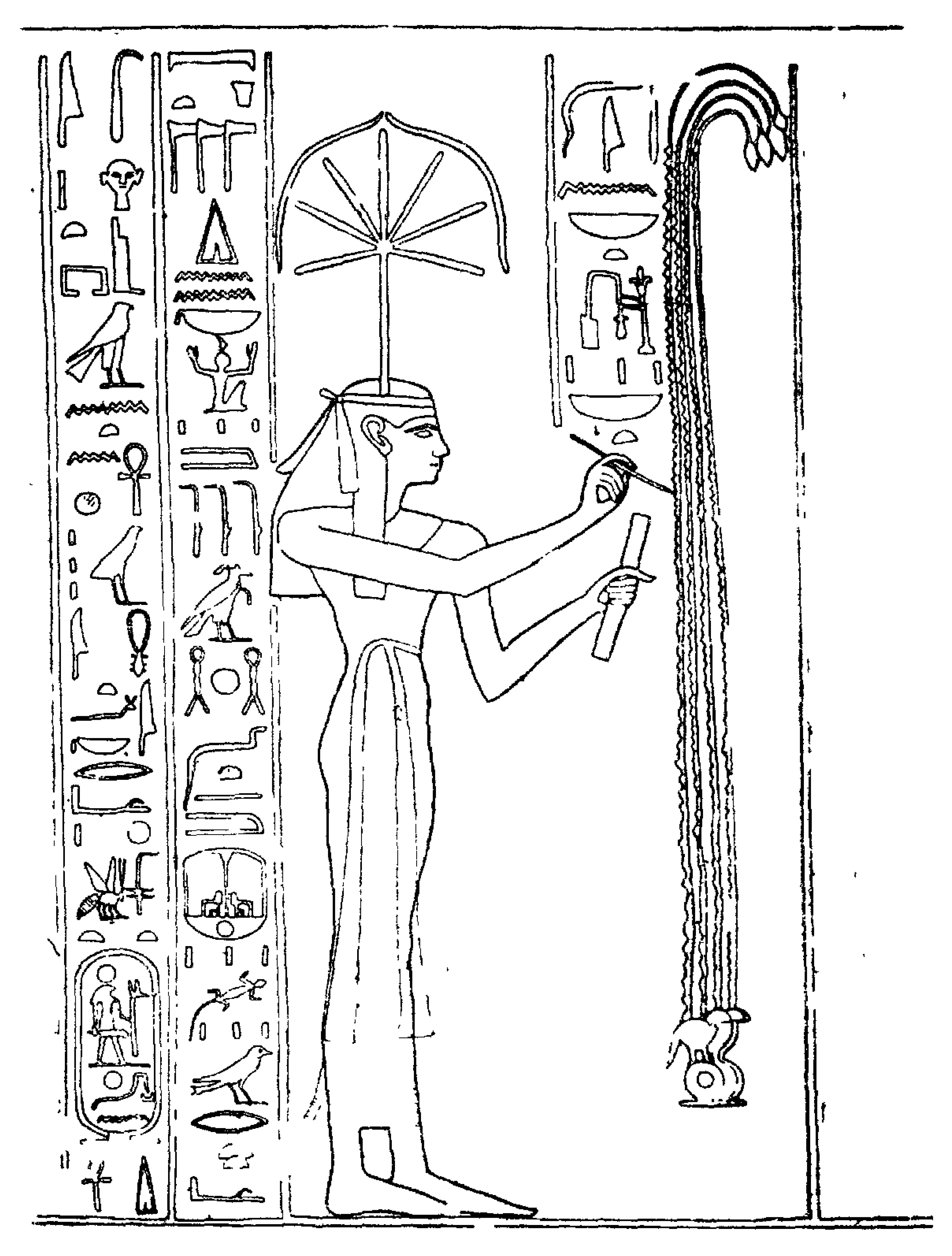
ولم يكن وادى النيل يومئذ مهدا صالحا لحياة الإنسان لما ملأه من المناقع والأخوار ، فكانت على تلك الهضاب كذلك حياة المصرى الأول ، وقد بدأ حياته قانصا صائدا . فلم تكن له يومئذ من وسائل الرزق الا مايجد من النبت الطبيعى ، وما يستخلص من الصيد بعد طراد شاق جهيد . فيظل يتعقب الطريدة من مكان إلى مكان . حتى إذا جن عليه الليل مال إلى كن يؤويه حتى يسفر الصبح . ليستأنف حياته تلك الشاقة المجهدة .

ويمضى الزمان ويتغير المناخ . فتظل السماء تقتصد فى غيثها للأرض حتى تشح ؛ وتظل الأرض كذلك تتجرد من النبات حتى يضطر الحيوان إلى طلب الكلأ والانتقال بالتدريج اليه ومن ورائه الانسان . فاذا الحياة بذلك تقترب من وادى النيل ، وكان قد تهيأ أثناء ذلك لاستقبال الانسان ، فعمق مجراه وردمت فيه أكثر المنافع بما يحمل من طمى . وظل الانسان كذلك حتى استقر على حوافه ومشارفه ، ثم لم يلبث أن نزل إليه واعتمد على مائه وإن ظل يعتمد على الصيد اعتمادا غير قليل .

وكان هذا الاستقرار فاتحة خير فى حياة المصريين وما أصابوا من تقدم ورقى . فقدارتبط الانسان بالأرض التى سكن والتربة التى زرع ، واستطاعت الزارعة أن تفىء عليه من الرزق ما أغناه كثيرا عما كان من الجرى وراء الصيد ،وأن تميزه بفضل من غذاء يدخره حتى يحول الحول وتمده الأرض برزق جديد . فكان أن أتاحت له تلك الحياة شيئا من فراغ يخلد فيه إلى الراحة والدعة ، وإلى التأمل والتفكير، ففتحت له أبواب لم يألفها من الثقافة والفن ،وجود ما اصطنع من آنية وأداة . ثم زخرفها ببعض ما انطبع فى نفسه من مظاهر الطبيعة الحية أو الجامدة .

ومع ذلك فلم تكن هـــذه الحياة الجديدة المستقرة لتخلو من الكد والكفاح . ولكنها اقتضت من المصريين جهدا كبيرا وكدحا متصلا،واقتضت منهم لذلك التعاون والارتباط . ثم كان أن دخل بعضهم مع بعض فى معاملات البيع والشراء فى أسواق تعارفوا عليها . فنشأ عن ذلك المجتمع المنظم ، وكانت القرية والمدينة التى تداعى أهلها ليشهدوا منافع لهم وليجتمعوا على رب يسبحونه وحاكم يسوسهم . وظلت المنافع تدفع الناس بعضهم لبعض فترتبط طائفة من القرى والمدن فى نطاق الاقليم الذى رسمته الطبيعة حتى نشأ من كل إقليم من أقاليم الوادى وحدة سياسية مستقلة بحـــكامها وأربابها .

ومع ذلك فقد قضت ظروف الوادى باتحاد تلك الأقاليم ، فنشأ منها مملكتان شملت إحداهما الدلتا واحتلت أخراهما الصعيد ، ثم لم تلبثا أن انتظمتا فى اتحاد متين، وفى ظل حكومة قوية راسخة عملت على ترقية البلاد ورفعة شأنها ، وذلك بفضل جهود أبنائها من حكام وأفراد وما كان لملوكها من الشخصية القوية والإيمان الراسخ .

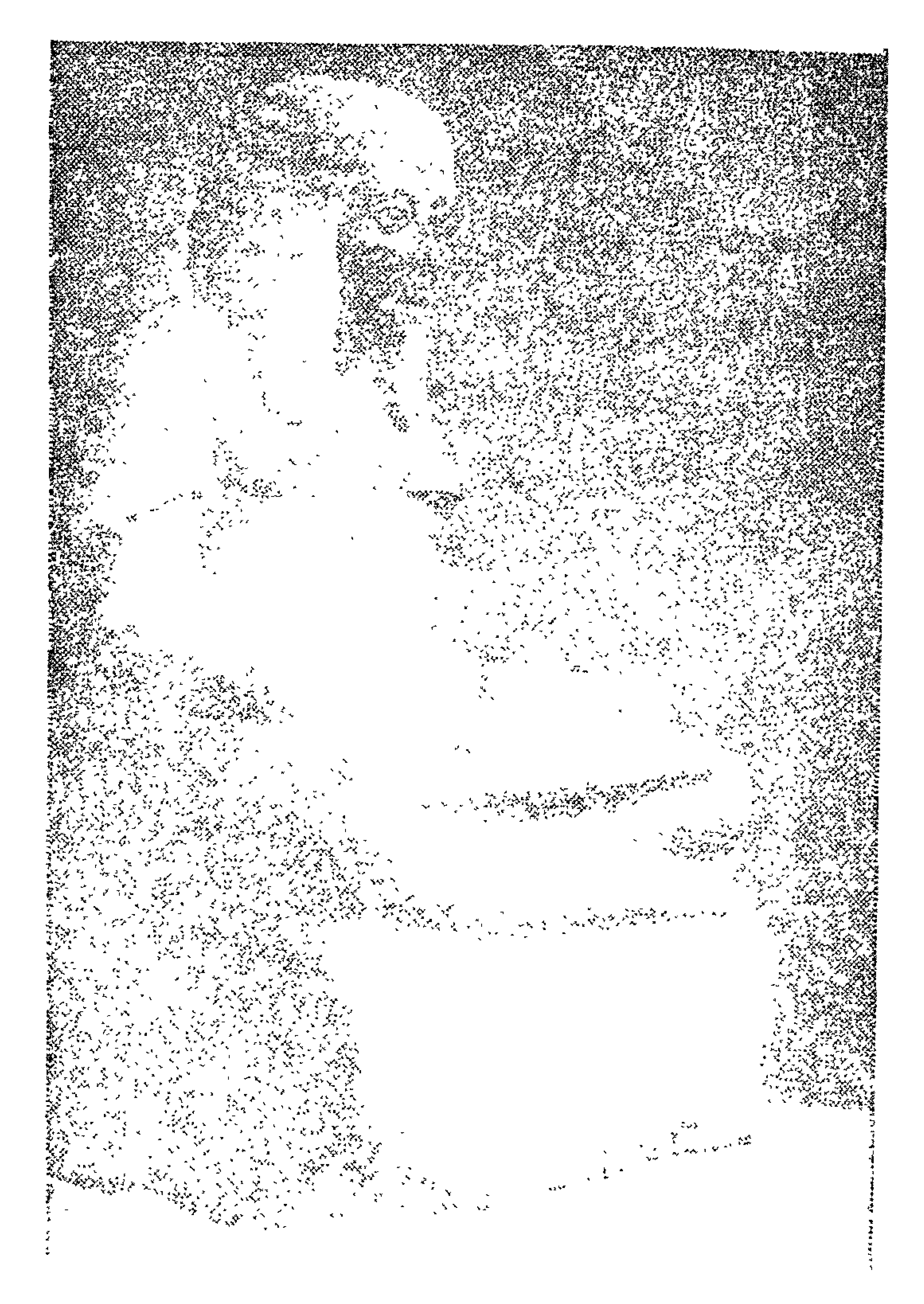


الآلهة سشات ربة الكتابة

ولقد كان هذا الاتحاد فاتحة عهد زاهر رائع من تاريخ مصر ، لأنه لم يقتصر على أن يكون اتحاداً سياسياً بين مملكتين ، ولكنه كان القمة التى التقت عندها يومئذ جهود المصريين وانتصاراتهم فى كل الميادين .

فما تكاد شمس الاتحاد تشرق على الوادى حتى كان المصريون قد عرفوا الكتابة وخرجوا منها من مراحل المحاولة والتجربة، ولقد كان الاتحاد وما صاحبه من قيام دولة قوية لها نظامها السياسى والإدارى المتين ، وحرصها لذلك على استخدام جمهور من الموظفين والكتاب ، وتشجيعها لهم بفتح باب الرقى فى وجوههم ، أثره فى أقبال الناس على الكتابة والتعليم ، بل يكاد المصريون أن يكونوا أشد الأقدمين حبا للكتابة وتقديراً للعلم ، وآية ذلك أنهم جعلوا للحكمة ربا هو جحوتى وللكتابة ربة هى سشات .

وفضلا عن ذلك فقد كان لقب الكاتب من أعز ما اتخذ المصريون من القاب ، فنحن لا نكاد نجد قبراً من قبور أشراف الدولة القديمة إلا واتخذ صاحبه لقب الكاتب أو مايتصل به ، وقد يكون الشريف أميراً أو وزيراً أو قاضياً أو حاكم إقليم ، ولكنه مع هذا يتخذ لقب الكاتب كأنه إنما اتخذ للدلالة على التعليم والثقافة . وكأنه يعادل عندنا لقب الأستاذ فى استعماله واطلاقه . ومهما يكن من شيء فلقد كان لهذا كله أثره العميق فى تطور اللغة وازدهار الأدب المصرى القديم .



تمثال حورم حب فى جلسة الكاتب

كان قائداً للجيش ثم تولى عرش مصر فطهرها من الفساد ،
وقد ظل يعتز بالكتابة وصفة الكاتب كما نرى من هذا التمثال .

(٤)

تطور اللغة :

وإذا اللغة منذ عصر الدولة القديمة تتعرض لكثير من عوامل التطور والرقى ، وذلك من حيث قواعد النحو والصرف وطريقة الهجاء ورسم الكلمات ، وظلت كذلك تخرج من بداوتها وتتخلص من جاهليتها ، حتى إذا كانت الدولة الوسطى، إذا باللغة المصرية قد تهذبت وصقلت، وبلغت كامل رونقها وأوج ازدهارها ، واتخذت طابعها الأصيل الذى عرفت به ، والتى كانت البيان المبين لروائع الأدب المصرى القديم ، وإذا لغة ذلك العصر هى اللغة المثالية النموذجية، أو التقليدية الكلاسيكية كما يسميها علماء اللغة المصرية القديمة ، وهى قد كانت كذلك فى نظر المصريين أنفسهم ، فان المتأخرين من عهد الأسرة السادسة والعشرين ، لما حاولوا أن ينهضوا بالبلاد ليعيدوا إليها مجدها الغابر بعد الذى لقيت من المحن والكوارث ، ونظروا فى ترقية اللغة ، قد عادوا بها إلى لغة الدولة الوسطى .

فلما كانت الدولة الحديثة ، كانت اللغة قد بدأت تتعرض لتطور جديد ، وطفقت تتحلل من بعض قيود النحو والصرف ، وتخضع لما يفرضه عليها المتحدثون من عامة الناس ، وذلك فضلا عما ادخلوا إليها من الالفاظ الأجنبية بعد اتصالهم بمن حولهم من الشعوب، وقد بدأوا يستعملونها تأنقاً وتظرفاً ، فإذا المصريون يتحدثون بغير ما يكتبون . ومع ذلك فقد تأثرت لغة الكتابة بلغة الحديث ثم لم تلبث اللغة الفنية الأدبية أن نزلت إلى لغة العامة ، وإذا آدب ذلك العصر تميل فى أغلبها إلى أساليبهم ، وكانت ثورة أخناتون الدينية من عوامل افساح المجال للأنشاد باللغة الشعبية ، ذلك أن

واقعيته التى دعا إليها فى الأدب والفن قد حملته على صوغ أناشيده الدينية بلغة الناس .

ثم تدور عجلة الزمان ، وإذا شمس الامبراطورية تنحدر إلى مغيب ، وتتعرض مصر للوافدين من أنحاء العالم القديم ، ثم تنطوى صفحة التاريخ المصرى فى ظل الفراعين ، وتدخل اللغة المصريه عهداً جديداً من حياتها ، بلغ اكتماله فى عهد البطالمة والرومان ، فإذا هى شعبية خالصة وقد عرف خطها بالديموطيقية، ثم ما تكاد المسيحية تدخل مصر بعد ذلك حتى تدخل اللغة المصرية طوراً أخيراً من حياتها ، وتتشح ثوباً جديداً عرف باللغة القبطية ، التى عمرت بضعة قرون قبل أن تتخلى عن مكانها فى مصر للغة العُرْب من آل عدنان .

(٥)
منزلة الأدب فى نفوس الأجداد:

كان المصريون يقدرون الأدب حق قدره ويعجبون بالكلام الجيد والقول البليغ ، وكانوا يرون فى إجادة التعبير والتصرف فى فنون الحديث فضلا يمتاز به المرء ومثلا ينبغى أن يتخلق به الكريم ، ويرون فيه كذلك ثروة تعين على المنزلة الرفيعة والدرجة السامية ؛ فقد كان پتاح‌حتب يحض على بذل الجهد والاستقصاء فى نيل العلم والبلاغة ؛ ويقول إن الكلام الجيد أخفى من الحجر الكريم ، ومع ذلك فقد يجده المرء عند الإماء .

ولقد أدرك المصريون ما يكون للكلمة من القوة والأثر وما تتيحه البلاغة والفصاحة من التسلط على الناس وحسن سياستهم والسيطرة عليهم وكان ذلك من مقومات القيادة القوية والزعامة النافذة. ولنا فى ذلك شاهد من قول أحد ملوك إهناسيا [1] لابنه مريكارع وهو يعظه فيقول : كن للكلام صانعا حتى تكون شديد البأس ، لأن قوة الرجل فى لسانه ، ولأن القول أمضى من أى قتال . وفيما ورد فى قصة البحار الغريق قول التابع : « إن منطق الرجل ينقذه وحديثه يكف عنه (غضب) الوجوه » .

ونستطيع كذلك الوقوف على مبلغ حب المصريين للأدب وشغفهم به مما أوردوه لنا فى قصة الفلاح الفصيح ، وما كان من شكايته للحاكم مما وقع عليه

---

(١) مدينة عند مدخل الفيوم كانت عاصمة الأسرتين التاسعة والعاشرة فى عصر الانتقال الأول .



« إله الحكمة »

ﭽحوتى رب الأقوال الآلهية كما سماه المصريون ، يسجل بقلمه حظ رمسيس الثانى من عطاء الدهر على أوارق الشجرة المقدسة بين يدى آمون رع

من الحيف والجور، وذلك فى أسلوب مبين وقول عذب طرب له الملك ، فأمر الحاكم بالتراخى فى اجابة الفلاح والتلكؤ فى رفع الظلم عنه استزادة من بيانه ، كما أمر بتدوين ما يقول ورفعه إليه [١] .

وقصة الفلاح الفصيح كما كتبها المصريون إنما قصد بها إلى امتاع القارئين والسامعين بما أوردته من البيان والبديع ، وهى تكاد تشبه المقامات فى الأدب العربى ، فلا تكاد شخصية الفلاح لتختلف عن شخصية عيسى بن هشام التى اخترعها بديع الزمان الهمذانى، أو شخصية أبى زيد السروجى التى اخترعها الحريرى ، ثم أجريا على لسانيهما ما شاءا من البيان .

كذلك ورد فى بعض آداب المصريين أن الملك سنفرو دعا رجاله يوما فسألهم أن يجدوا له من بينهم واحدا فيـــه من الحكمة والمقدرة فيحدث جلالته بالأقوال البليغة والأحاديث المختارة التى تسر قلب جلالته .

ولقد أدرك الملوك والكهان حب المصريين للأدب وإقبـــالهم عليه وتأثرهم به ، فكان أن استخدم فى الدعاية الدينيـة والسياسية ، وفى توجيه عواطف النـاس وأفكارهم إلى بعض مذاهب الدين أو اتجاهات السياسة فكانوا يستغلون شغف الناس بالقصة والرواية فيتحدثون إليهم بالقصة الشيقة التى تثير الشغف والانصات ، وهم فى أثناء ذلك يبثون فى تضاعيفها ما شاءوا من الدعاية . ويوحون للناس بما يجرون على لسان أبطالهم من النبوءات والكهانات . كان ذلك مثلا أواخر الأسرة الرابعة ، حين طفق كهان الشمس يبشرون بدينهم ويدعون لدولتهم التى يقبض زمامها فيها رووا ملوك زعموا أنهم ولدوا لإله الشمس من امرأة من الشعب ، وتكرر ذلك أيام الدولة الوسطى فى نبوءة نفرر حو، التى بشر فيها بحكم امنمحات الأول وفى الدولة الحديثه عن مولد حاتشبسوت الالهى .

(١) وهى تذكرنا بقصة الفلاح العربى الذى شكا عامل الخراج بقوله :
« إنه ما ترك لى ذهبا إلا ذهب به ، ولا فضة إلا فضها، ولا عرضا إلا عرض له ولا مالا الا مال به، ولا ضيعة إلا أضاعها، ولا ماشية إلا امتشها، فأعجب به الامير وأنصفه.



كسر الفخار

اتخذت كذلك مع البردى وعاء لحكمة المصريين وآدابهم فضلا عن أمور معاشهم

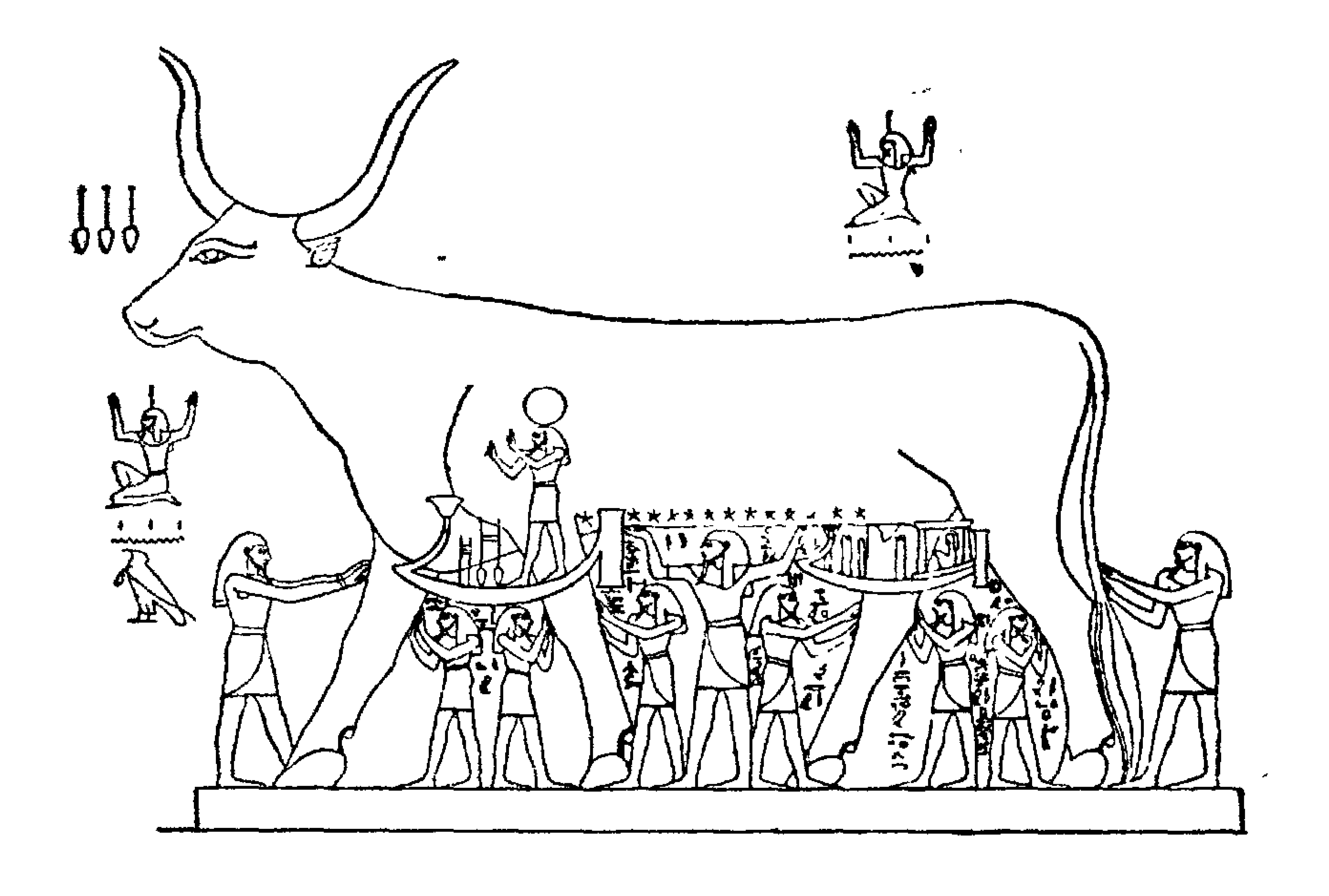
(٦)
تراثنا الأدبي

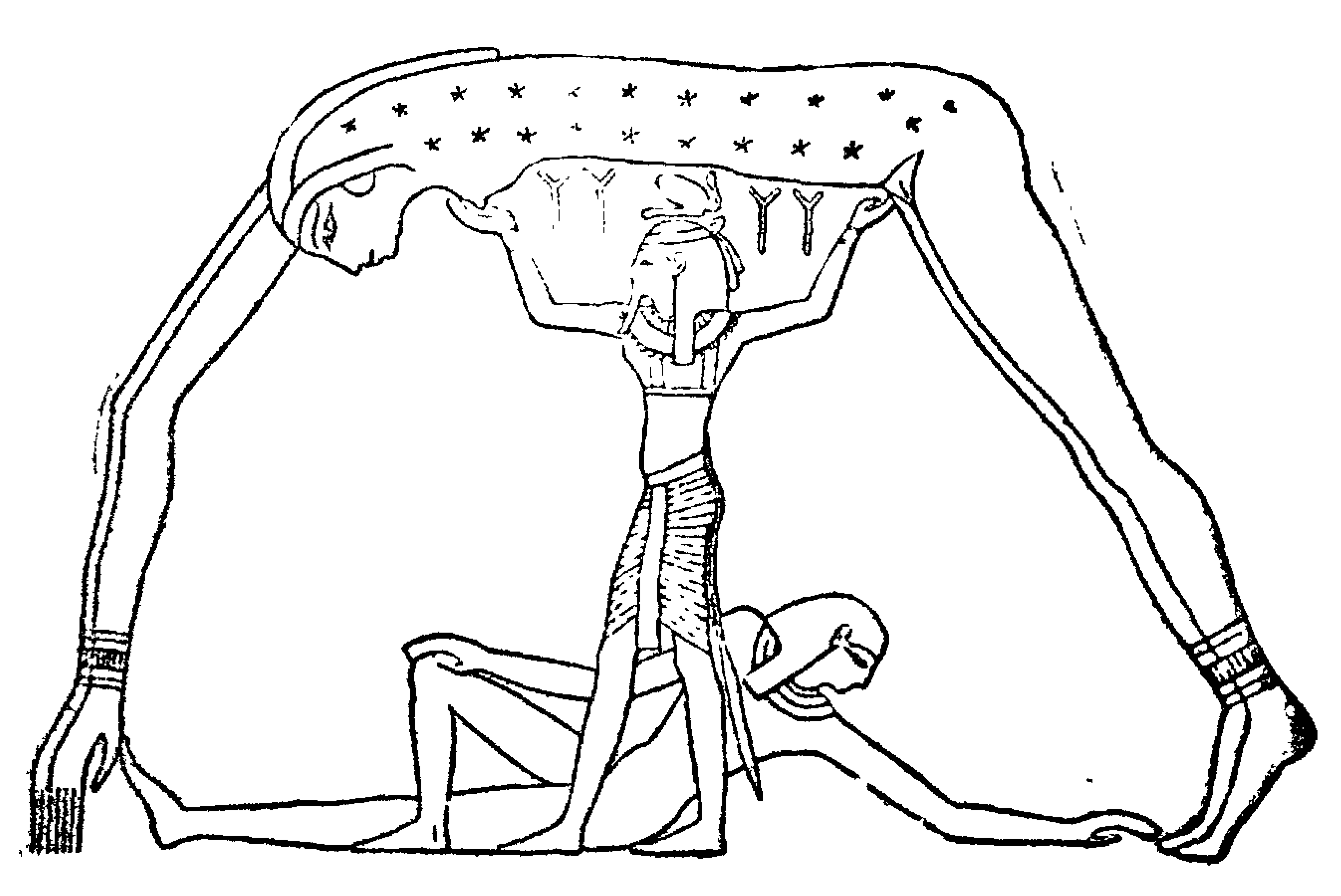
من الخطر أن نخضع الآداب القديمة لما عندنا اليوم من المقاييس والمعايير، وأن نعيب على المصريين الأقدمين أدبا أنتجوه ولم يحقق لنا كل الذى نريده من آدابنا منذ اليوم، فنقفز بذلك هوة سحيقة من الزمان ونسقط من تقديرنا عشرات من القرون فى حساب التطور الفكرى والأدبى، ولذلك فينبغى أن نصدر فى حكمنا على الأدب القديم على أساس من تقدير العصر الذى أنشىء فيه والثقافات التى أخذ عنها وأسهمت فى إنشائه.

ومع ذلك فقد وضع المصريون القدامى الأسس الأولى فى بناء الفكر الإنسانى والانتاج الأدبى الرفيع، وأنتجوا لنا أدبا ما زال يؤثر فينا ونجد له فى نفوسنا شعوراً بالرضى والإعجاب.

ومهما يكن من شىء، فقد ملك المصريون ناصية المعانى والأفكار، وكانوا حريصين فضلا عن ذلك على تجويد الكلام والوصول به إلى أقصى ما استطاعوا من الجمال الفنى والتأثير الأدبى، بما حفل به من ضروب البيان والبديع، وما اصطنعوا فيه من التشبيه والاستعارة والكناية والتورية والجناس. وحسب الذين ينظرون فى أدب المصريين القدامى أن يعلموا أنهم أخرجوا للناس كثيراً من الصور والتعبيرات التى فرضت نفسها على آداب من جاورهم من الأمم والشعوب، ثم وجدت سبيلها إلى كتبنا المقدسة التى أثرت فى آداب العالم القديم والحديث، وقد كان طبيعياً أن تتحدث الكتب المقدسة إلى الناس بما كانوا قد ألفوا من قبل من الصور والأخيلة والتعبيرات.

ونعرف مما وصل إلينا أنهم كتبوا فى المديح والرثاء والغزل والغناء، بل كتبوا فى أكثر من ذلك من أغراض الأدب وفنونه، واستطاعوا وصف المشاعر الإنسانية من الحزن والفرح، والغضب والرضا ومن اللذة والألم.





السماء بقرة وامرأة : تشبيهات وأخيلة شعرية اتخذت سبيلها إلى فنون الرسم والتصوير

(٧)

الشـــعر

ولقد انحدرت الينا من آداب المصريين قطع أجمع علماء اللغة المصرية القديمة على أنها شعر ، ومع ذلك فلسنا نعرف من هذا الشعر عروضاً ولا وزنا ، وهو غير مقيد بقافية ، ولكن الذى يمكن قوله عنه إنه كلام صيغ فى لغة رفيعة ،وإنه يقع فى فواصل وجمل قصيرة يرجح أنها شعر .

(٨)

أدب الدولة القديمة :

لم يكد يصل الينا من آداب الدولة القديمة إلا النزر اليسير ، ولسنا نعرف منها إلا ما حفظت المقابر والأهرامات المنقوشة من المتون الدينية والجنزية ، ومناسك العبادات ، وما كان الأشراف يسجلون فى قبورهم من تراجم حياتهم ، وما خبروا أثناء ذلك من شئون الوظائف ، وما أدوا من جلائل الاعمال ،أو ابرموا من المواقع والاسفار ، وما منحهم الملك من لقب أو هبة يقدرونها ويفخرون بها على الأزمان ، وقد كان طبعياً أن ينشأ هذا النوع من الأدب فى مجتمع كان الدين قوام حياته الفكرية والثقافية ، وفى دولة بيروقراطية قامت على سواعد الموظفين وجهودهم .

ولقد كان الدين أعمق ثقافاتهم أثراً فى تصوراتهم وأخيلتهم ، وكان مدعاة لكثير من الأدعية والمتون، فكان من عوامل النهوض بالتعبير والإنشاء ، ويتجلى ذلك واضحا فيما حفظ من نصوصه وعلى رأسها متون الأهرام التى

تفيض بالأخيلة والتشبيهات والاستعارات والمجاز والتورية والجناس. وكان من طبيعة المصرى تشخيص أفكاره وأحاسيسه فى صور حية — كأنما كان يفكر بالصور — حتى ذهب بعض العلماء إلى أن الرسوم والتصاوير الدينية كتصوير السماء بقرة أو امرأة إنما كان فى الأصل مجرد تشبيهات أو أخيلة شعرية، ازدادت مع الزمن استقرارا فى اللغة وقربا من الشعب، حتى وجدت سبيلها إلى الفن.

وقد يتمثل كذلك من آداب الدولة القديمة فيما كان الآباء من كبار الموظفين — وقد تقدمت بهم السن والتجربة — يزودون أبناءهم به من الحكمة والموعظة الحسنة، وإن انحدرت الينا فى أوراق ترجع إلى الدولة الوسطى على أقل تقدير، ولعل هذا النوع من الأدب أن يكون قد ظهر واضحا جليا منذ النصف الثانى من الدولة القديمة، منذ أصبح الأبناء يخلفون آباءهم فى الوظائف فكان من الحق على الأب أن يبصر ولده فيما هو مقبل عليه من منصب خطير، وأن يهديه سواء الصراط.

وليس يعنى ذلك اقتصار الأدب فى الدولة القديمة على ما سلف من أغراض، ولا ريب أن الغناء والقصة قد انتشرا فى ذلك الأوان، وأن الناس إنما كانوا يتداولونهما بالرواية والسماع قبل أن تعم الكتابة وينتشر التدوين.

(٩)

عصر الانتقال الأول :

ومهما يكن من شيء ، فقد طفقت قوة الدولة القديمة تنحدر ويلحق بها الضعف والانحلال ، وقدر الملك ببي الثانى آخر ملوك الأسرة السادسة أن يعمر ويقبض على السلطة أمدا لم ينبغ لأحد من الملوك فى التاريخ ، إذ بلغ حكمه نحوا من أربعة وتسعين عاما ، وكان لشيخوخته الطويلة الأثر الحاسم فى انقضاض صرح الدولة وانحسار نفوذها ، فتراخت قبضة الحكومة على سائر البلاد ، واستقل حكام الأقاليم بأقاليمهم ، وأصبحوا ملوكا أو كالملوك ، ووقعت البلاد فى عهد من فتنة وانقسام سياسى واضطراب اجتماعى لم تعرفهما منذ اتحادها .

ومع ذلك فقد صاحبت تلك الأحوال ثورة فكرية ونهضة أدبية رائعة فلم يعد الملك تلك المنزلة والهيبة الإلهية التى وقرت من قبل فى النفوس ، ولكنه عاد فى عيون المصريين إنسانا يجرى عليه مثل ما يجرى على الناس جميعاً ، فتزعزعت عقائد ، واهتزت مثل وقيم قدسها المصريون من قبل ، وانهارت فى أعينهم قيمة القصور المنيفة والمقابر الضخام ، فكان أن انطلقت الألسنة المعقولة والأفواه المكمومة ، تصف ما تجد وتعبر عما يختلج بالمشاعر والنفوس ، وكان من أروع ما وصل إلينا من آداب تلك الفترة أحاديث ايبوور الحكيم ، ووصفه لحال البلاد فى ذلك الزمان ، فهو يتحدث إلى ملك شيخ — هو فى أكبر الظن ببي الثانى الذى لها عن كل شيء فهو لا يعرف من أمر بلاده إلا ما تتحدث به بطانته من الكذب والزور .

ولكن أيپوور يقتحم عليه سكينته التى أخلد إليها واستنام لها ، فيصف له فى أسلوب رائع حزين حال البلاد وما تردت فيه من الاضطراب والافلاس وما حل بالناس من المحن والخطوب فذل العزيز وعز الوضيع .

ولقد نتج عن تلك المحن التى نزلت بالبلاد كثير من التأملات والأفكار وعم كثير من الشك والانكار ، وتفرق الناس فى ذلك شيعا ومذاهب شتى ، ووصلت إلينا قطع أدبية ممتازة من ذلك العصر الذى كان فترة انتقال بكل ما فى عهود الانتقال من التيارات المختلفة وتصارع الأفكار ، ومن هذه القطع ما يدعو إلى التمتع بالحياة واتباع الأهواء والشهوات « لأن أحدا لا يأخذ متاعه معه ولا يعود بعد رحيله » . ومنها ما رأى الحياة تافهة لا معنى لها وأن الخير والراحة فى الموت .

ولكن هناك نفوسا صهرتها المحن فزادت أصحابها إيمانا بالآخرة ، فلم تعد تقيم وزنا للثروة فى الدنيا وزخرفها ، ولم تعد ترى فى ضخامة الأملاك والقبور شيئا يفيد . ولكنهم رأوا السعادة فى صالح الأعمال وفيما يؤدى من الفضائل ، فأشادوا بالنظام والعدالة ، وبشروا بأن الخلود لا تسوغه وجاهة أو ثراء وإنما سبيله اجتناب الآثام وفعل الخيرات « فان فضيلة من يؤثر الحق لأحب (عند الله) من الثور الذى يقدمه المذنب قربانا »[1]

ولقد تأثرت الملكية بما ساد يومئذ من المثل والأفكار ، فاذا الملكية

---

(١) فعل العدل والحق أفضل عند الرب من الذبيحة (سفر الامثال ٢١ - ٣) هذا ويلاحظ أن الكلمة المصرية « ماعت » تعنى الحق والعدل . ويذكرنا ذلك بما ساد فى العصر العباسى من نزعة الى المجون كان زعيمها أبا نواس ونزعة الى الزهد كان زعيمها أبا العتاهية .

« وظيفة » لها واجباتها الثقيلة وتبعاتها الجسام ، ولم يعد الملك يعلو على شعبه فلا يحس بآلامه وحاجاته ، بل أصبح يستشعر المسئولية عن أمن ذلك الشعب ورفاهيته ، فاذا بنا أمام قطع أدبية تجرى على أفواه الملوك ، ومنها نصائح يسديها الملك إلى ولى عهده كى يقوى على التخلق باخلاق « الزعامة الجديدة » ، التى تكفل له حسن قيادة شعبه . وكان ذلك تمهيدا لقيام الملكيات الديمقراطية وعودة البلاد إلى الوحدة والنظام، وتحقيق ما قد طال ما تمناه الشعب بعد أن شقى بالتفرق والانقسام ، ولم يطل شوق الناس إلى المخلص المنتظر ، فقد انتشرت البشرى على لسان كاهن يدعى نفررحو تبشر بمجىء الملك القوى الذى يقبض زمام البلاد فيقيلها من عثرتها .

أما الأدب الدينى فقد تعرض لتطور بعيد المدى لما طرأ على العقائد فى تلك الفترة من الذيوع والانتشار بين عامة الناس بعد خاصتهم ، ولم تعد نصوص الأهرام وقفا على الملوك تتلى من أجلهم ليس غير ، بل اتخذها الناس جميعا لأنفسهم ، وقدروا أنهم يشاركون الملوك والاشراف فى مصائرهم . فنقشت على توابيت الخاصة والعامة . وظل الناس يتداولونها حتى أصبحت فى الدولة الحديثة صلب ما يسمى « كتاب الموتى » .

(١٠)

الدولة الوسطى :

فلما كانت الدولة الوسطى ، إذا بالأدب المصرى قد بلغ غاية ازدهاره وروعته . وتنحدر إلينا منه آيات من روائع البيان . ونقرأ منها أغانى العمال والترانيم الدينية العذبة لآلهة المصرى كالشمس والنيل فضلا عن مدائح الملوك .

وكانت القصة قد ظهرت يومئذ وقد اكتملت عناصرها وأسباب قوتها بما جمعت من إحكام أحداثها وعقدتها وختامها . وما يتردد فيها من الحوار الذى يضفى عليها القوة والحياة . وذلك فضلا عن سلامة الوصف والتحليل وحسن التعبير عن المشاعر . مع تأنق فى اللفظ وثروة فى ضروب البيان من التشبيه والاستعارة والكناية وسوق المثل السائر . وقد اشتهرت من ذلك قصتا سانوهى والبحار الغريق .

(١١)

عصر الانتقال الثانى

على أن الدولة الوسطى لم تلبث أن دب إليها الضعف والانحلال ، وحلت بمصر فترة أخرى من الضعف أطمعت فيها هذه المرة من جاورها من الشعوب فخضعت أمام غزو الهكسوس ، وشقى المصريون منهم باحتلال طال عليه الأمد .

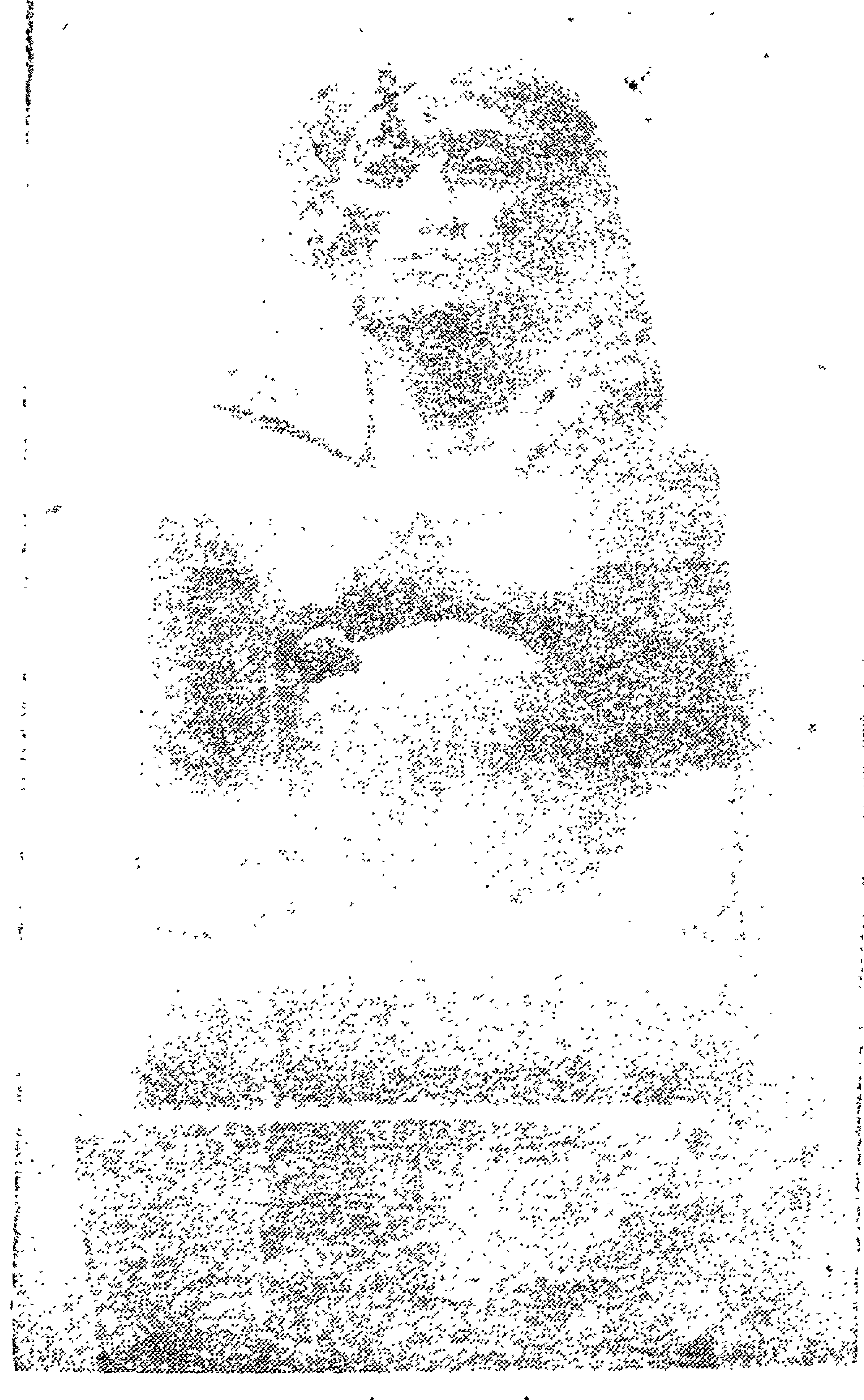
ولكن المصريين لم يكونوا ليستكينوا لحكم الأجنبى أو يستنيموا لاحتلال الغاصبين ، ودخل الأدب ميدان الوطنية ليعبىء المشاعر ويذكى الحماس ، وانتشرت القصص والأحاديث التى تصور ظلم الهكسوس

وافتئاتهم . وتستنكر بقاءهم ، حتى هبت مصر عن بكرة أبيها فأجلتهم عن البلاد وطهرت منهم الأرض .

(١٢)
الدولة الحديثة

وتبدأ مصر منذ تخلصها من احتلال الهكسوس عهدا زاهرا مجيدا وتغلغلت فى نفوس أبنائها الروح الحربية والنزعة الوطنية ، وأقبل الشباب على الجيش ينخرطون فيه ويندفعون فى معاركه ، ثم يفخرون بما شهدوا من ضروب الشجاعة والاقدام تحت لواء الملك الذى لم يكن أقل اعتزازا وفخرا

وكان لقيام الامبراطورية واختلاط المصريين بمن حولهم من الشعوب وما تدفق على البلاد من ثروة ، وما تمتعت به يومئذ من الرخاء والترف أثره العميق فى حياتها وحضارتها ، وحظى الأدب من ذلك بنصيب وافر من الثراء والخصب ، فقد انتقل المجتمع المصرى إذ ذاك نقلة لم تعهدها مصر من قبل ، وكثرت المآدب والحفلات بما فيها من الرقص والغناء . وكان المصريون مغرمين بهما واكتسبت المشاعر دماثة ورقة نرى آثارهما فى إنتاجهم فى الفن والأدب جميعا . فقد تعددت موضوعات الأدب وذاعت أناشيد الحب واهازيج الغزل، يعبر فيها الشباب عما يجد من اللوعة والحرمان لبعد الحبيب وعسر لقائه ، ولم يجد المجتمع المتطور يومئذ حرجا فى أن يجرى ذلك على لسان الفتى أو الفتاة ، وأقبل المصريون على سماع القصص والأساطير ،فذاعت أحاديث السحر وخوارق الاعمال.وربما جعلوا شخوص قصصهم من الملوك أو الآلهة،ولا يجدون عيبا فى أن يتباغض الآلهة ويختصموا . وأن يتهم بعضهم بعضا بما يؤذى النفس أو يخدش الحياء . فكأنهم كانوا أساتذة الاغريق كذلك فيما أخرجوا فى هذا السبيل من أساطير أبطالها الآلهة من الذكور والاناث



امنتحب بن حابو

وزير الملك امنحتب الثالث، حكيم آخر رفعته حكمته إلى مصاف الآلهة فى العصور المتأخرة

بل لقد رووا من القصص ما كانت أبطاله شخوصا معنوية مجردة كالذى كان بين الحق والباطل وما دار بينهما من صراع أصيب فيه الحق بالعمى قبل أن ينتصر آخر الامر .

وحظى الأدب التعليمى والتهذيبى بعناية المصريين . وتمتع من اهتمامهم بحظ عظيم . وتبادل الناس رسائل الأدب والمناظرة فضلا عن الرسائل الاخوانية والمجاملات الإجتماعية . وقد ساعد على ذلك كله انتشار التعليم والثقافة بين الناس . وشيوع الكتابة والتدوين . وما اقتضته أحوال مصر السياسية والإجتماعية والثقافية من توسع فى صناعة ورق البردى .

ولم يكن الأدب الدينى فى الدولة الحديثة بأقل حظا من غيره انتشارا وازدهارا . وظلت الترانيم تتردد فى المعابد بحمد الآلهة وعلى رأسها آمون . بل لقد كانت الانتصارات وجلائل الأعمال التى يحرزها الملوك إنما تضيف مجدا إلى مجد آمون الذى سدد خطاهم وهداهم سبيل الرشاد . فيزداد الملوك له حمدا وتمجيدا بالقرابين والأناشيد . على أن أروع ما نعرف من أناشيد الدولة الحديثة الدينية إنما كانت اناشيد اخناتون الذى صاغها وترنم بها لربه الذى دعا إليه ، وحمل الناس على عبادته وحده لا شريك له . ورمز له بقرص الشمس ثم طفق يعدد آلاءه ونعمه على العالمين .

(٢)

صور من كلامهم

الدولة القديمة

من متون الأهرام

حمداً لك يا أتوم
حمداً لك ياموجود
يامن نشأ من ذاته
يارفيع فى اسمك « الرفيع »
حمداً لك ياعين حور [1]
يامن زينك بيديه

إنه لا يدعك تسمعين للغربيين
إنه لا يدعك تسمعين للشرقيين
إنه لا يدعك تسمعين للجنوبيين
إنه لا يدعك تسمعين للشماليين
إنه لا يدعك تسمعين لمن هم فى أواسط الأرض
ولكنك تسمعين لحور

إنه هو الذى زينك
إنه هو الذى شيدك
إنه هو الذى أسسك
فافعلى له كل ما يأمرك

* * *

وهذه مراث وصلوات للملك المتوفى :

(١) يخاطب مصر فى هذا البيت وما يليه حتى آخر القصيدة.

أيا أوناس ، لقد بكيت من أجلك
وانتحبت من أجلك
إننى لن أنساك
ولن يكل فؤادى من تقديم القربان إليك كل يوم
أيا أيتها البقرة الحلوب هناك
أيا أيتها البقرة المرضعة هناك
أذهبى من حوله
وابكى من أجله واحمديه
وانتحبى من أجله
إذا ما صعد وعرج إلى السماء
بين اخوته الأرباب

لقد غامت السماء
وسقطت الأنجم مطراً
وأحترقت الأقواس
وارتعدت عظام جب [1]
عندما رأى كيف أقبل نشيطاً كالاله
يحيا على آبائه ويتغذى بأمهاته

دعاء للملاح الذى يعبر بالملك المتوفى إلى الآخرة :

أيا أيها الملاح فى مياه القرابين
هات لاوناس هذا السفين
إن أوناس يذهب وينبغى أن يجىء
إنه ولد لزورق الصباح

(١) اله الأرض

الذى حمله بين يدى الأرض

يا أيها الذى تعبر بالمبرئين الذين لازورق لديهم

يا ملاح مناقع الغاب

إن أوناس أمام السماء

إنه القزم الذى يرقص للاله(١)

إنه هو الذى يسر قلب الاله قبالة عرشه

(٢) يريدون أن الملك سوف يرضى الاله كالأقزام التى كان المصريون يجلبونها من السودان شغفا بما كانت تؤدى من رقص يبعث السرور والرضا الى نفوسهم

نداء الأموات للأحياء

وكان الأشراف ينقشون هذا الدعاء وأمثاله على قبورهم حيث يدعو الموتى من يمرون بالقبر من الأحياء إلى تقديم القربان أو تلاوة الأدعية إن لم يكن فى أيديهم شىء يقربون، كأن ذلك نوع من طلب الرحمة أو قراءة الفاتحة عندنا، وكان الموتى كذلك يحذرون الأحياء من أن ينتهكوا حرمة القبر أو يخربوه :

« يا أيها الأحياء فوق الأرض، يا من تمرون بهذا الضريح، هل تحبون أن يرضى عنكم المليك وأن تكونوا من المقربين عند الاله العظيم، إذن قولوا ألف رغيف وألف قدر من جعة للمقرب نخبو، ولا تخربوا فى الضريح شيئاً لأنى روح مكرم، وما من رجل يهدم شيئاً من ذلك الضريح إلا احتكمت منه إلى الاله العظيم، فإنى لم أكن أقول إلا الخير وما من مرة قلت فيها السوء عن إنسان .

الحكم والمواعظ

أقدم ما وصل إلينا من تلك الحكم وأشهرها ما روى عن حكيم الأسرة الخامسة ووزيرها فى عهد الملك إسيسى، فقد استشعر الوزير اقتراب النهاية وقد تقدمت به السن ووهن العظم منه، فتقدم إلى مليكه مستأذنا فى أن يزود ولده ببعض ما كسب من تجارب فى عمره الطويل فأذن له الملك، فإذا هو يقدم بين يدى حكمته ذلك الوصف الرائع لما تنزله الشيخوخة بالمرء :

« إن الوهن يحل به كل يوم، والبصر يكل، والاذنين تصابان بالصمم، والقوة تهن والقلب لا يستريح . . والذكاء يخبو، وإنه لمن العسير أن يتذكر اليوم ما كان بالأمس، والعظام تنوء بالآلام . . . .

النصائح :

لا تتكبر بعلمك ، تحدث إلى الجاهل والعالم [١] ،

آدب المائدة :

إذا كنت فى جماعه جلست إلى الطعام فى بيت رجل أكبر منك، تتناول مايعطيك وضعه بين يديك ، وانظر (فقط) إلى ماأمامك [٢] . . . ولا تقاطعه بالحديث فما يدرى امرؤ متى يغضب ، اضحك إذا ضحك ، يسر ذلك قلبه . . . تحدث إذا خوطبت حتى يقبل كلامك .

العمل :

كن مجتهداً دائمـــاً ، وزد على ماتؤمر به من العمل ، ولا تضع وقتاً لا تعمل فيه ، فإنه ممقوت ذلك الذى يسىء استخدام وقته ، ولا تفلت فرصة يوماً فى زيادة ثروة بيتك ، فإن العمل مجلبة للثراء . ولا يدوم الثراء إذا اهمل العمل .

الزوجة والبيت :

إذا كنت عاقلا فاجعل لنفسك بيتاً ، أحب زوجتك كثيراً ، وفر لها الطعام والثياب لظهرها ، قدم لها الدهانات والعطور ، فن علاج اعضائها الدهانات ، أسعدها ما عشت فإنها حرث مثمر لسيدها [٣] . . . لا تكن قاسياً فى البيت فهى اسهل قياداً بالاقناع من العنف . ارض حاجاتها . . . فإن ذلك ماسوف يبقيها فى بيتها

(١) يذكرنا بقول الرسول (ﷺ) : أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم

(٢) إذا جلست تأكل مع متسلط فتأمل ما هو أمامك تأملا — سفر الأمثال ٢٣ : ١

(٣) نساؤكم حرث لكم (قرآن كريم)

أداب السلوك :

كن صموتاً فذلك خير من الثرثرة . . . لا تتردد على بيوت الشراب ، فلسوف تروى سقطات الفم ، وما أسوأ الا تعرف ما كنت تقول . . . إن لفظة قد تسقط وأنت تتحدث قد تقلب بيتك .

بر الأم :

لقد أعطيتك لأمك التى حبلت بك ، وقد تكبدت فى حملك ثقلا عظيما وضعته بغير عون منى . . . وظلت ثلاثة أعوام ترضعك ، فلما أرسلت إلى المدرسة . . . كانت تحمل الخبز والنبيذ من بيتها لاستاذك كل يوم . . . لقد شببت الآن واتخذت لنفسك زوجاً وبيتاً ، فارع طفلك وربّه كما ربتك أمك ، واحذر أن تفعل شيئاً يؤذيها حتى لا ترفع يديها إلى الاله فيسمع شكواها . . . .

* * *

ولكم نود أن نسترسل فى هذه الحكم الغالية التى ترددت فى الاسماع والنفوس قروناً ، وما زلنا نجد لها من الأثر ما نحب ونرضى ، ولكنها حكمة على كل حال . وهى تتحدث عن نفسها بغير حاجة إلى شرح ولا تأويل .

قصــــص الســـحرة

[جلس الملك خوفو يوماً وحوله الأمراء من بنيه يتحدثون إليه ويسمرون معه ،وقدطفق كل واحد منهم يروى له قصة من غرائب ماروى عن اسلافه من الملوك والكهان، وهو يستمع إليهم قرير العين منشرح الصدر .]

. . . ثم وقف الأمير خفرع ليتكلم فقال : سأروى لجلالتك معجزة وقعت فى زمان أبيك نبكا يوم ذهب إلى معبد بتاح رب عنخ تاوى (منف) فإنه زار كذلك رئيس المقرئين اوبا أونر ، وكان لذلك الكاهن زوجة تحب مدنياً ظلت على اتصال به عن طريق وصيفة لها . . فأرسلت إليه يوماً صندوقا حافلا بالثياب ودعته لزيارتها. فأقبل مع الوصيفة . . . ومضت أيام عدة على ذلك ، وكان هناك جوسق عند البحيرة فى حديقة اوبا أونر فقال المدنى لزوجة أوبا أونر : انظرى ، إن هناك جوسقاً فى حديقة اوبا أونر ، فلننفق وقتنا هناك ، فأرسلت زوجة اوبا أونر إلى ناظر البيت الذى يشرف على الحديقة تقول أعد الجوسق الذى فى الحديقة . . . وكان أن أنفقت النهار هناك تشرب مع المدنى . فلما كان المساء أقبل المدنى فنزل فى البحيرة والخادمة قائمة على خدمته .

ولما أن أضاءت الأرض وبزغ اليوم التالى ذهب ناظر الحديقة فروى ذلك الأمر لسيده ،فقال أوبا أونر: احمل إلىّ الصندوق المصنوع من الأبنوس والذهب . . . ثم إنه صنع تمساحاً من الشمع طوله سبعه قراريط وتلا عليه عزيمة سحرية وقرأ: «من أقبل ليغتسل فى بحيرتى فاقبض عليه» ، وعندئذ سلمه للخادم وقال له : إذا نزل ذلك المدنى فى البحيرة كعادته فالق بالتمساح فى الماء وراءه . فمضى الخادم لسبيله ومعه التمساح .

وأرسلت زوجة أوبا أونر إلى الخادم المشرف على الحديقة تقول : أعد الجوسق الذى فى الحديقة فإنى آتية للاقامة فيه ، فأعد الجوسق بكل شىء جميل فذهبتا [1] إليه حيث انفقتا يوماً مرحا ، ولما كان المساء ونزل المدنى كعادته ،القى الخادم بالتمساح الشمع فى الماء، فتحول إلى تمساح طوله سبعة أذرع وقبض على المدنى .

وظل أوبا أونر مع الملك سبعة أيام والمدنى أثناء ذلك تحت الماء لا يتنفس ، فلمامضت الأيام السبعة وهمَّ الملك نبكا بالعودة قال له رئيس المقرئين : هل لجلالتك أن تأتى لترى المعجزة التى حدثت فى عهد جلالتك ، فذهب معه الملك .

ونادى أوبا أونر على التمساح قائلا : احمل المدنى إلينا ، فخرج التمساح يحمله فقال جلالة الملك : معذرة ولكن هذا التمساح مخيف ، عندئذ انحنى أوبا أونر فأخذه فإذا هو تمساح من الشمع فى يده ، ثم روى رئيس المقرئين لجلالةالملك نبكا ذلك الشىء الذى فعله المدنى مع زوجته، فقال جلالته للتمساح خذ ما لك . فنزل التمساح إلى أعماق البحيرة ولم يعرف أحد أين ذهب .

وأمر جلالة الملك نبكا فأخذت الزوجة إلى ميدان شمالى القصر فأحرقت والقى رمادها فى النهر .

تلك معجزة وقعت فى عهد أبيك نبكا من أعمال رئيس المقرئين أوباأونر فقال جلالة الملك خوفو : فليقرب للملك نبكا ألف رغيف من الخبز ومائة جرة من جعة و ثور وكيلان من بخور ، وليقرب إلى رئيس المقرئين أوبا أونر كعكة وابريق من جعة وقطعة كبيرة من اللحم وكيل من بخور فقد رأيت مثلا من علمه . فنفذ كل ما أمر به .

---

(١) أى زوج الكاهن ووصيفتها

ثم وقف الأميريا ـ وفرغ ليتكلم فقال : سأروى لجلالتك معجزة وقعت فى عهد أبيك سنفرو من أعمال رئيس المقرئين چاچام عنخ . فقد أحس الملك سنفرو فى نفسه الكآبة يوما ، فكان أن جمع إليه ضباط قصره ليجد مسلاة له فلم يجد شيئاً . فقال ، اذهبوا فأتونى برئيس المقرئين الكاتب چاچام عنخ، فأحضر فى الحال فقال له جلالته : لقد جمعت ضباط القصر معا أبحث عن مسلاة فلم أجد ، فقال له چاچام عنخ ، لو خرجت جلالتك إلى بحيرة القصر فاتخذت زورقا كل ما فيه من فتيات قصرك لا نشرح فؤاد جلالتك عندما تراهن يجدفن جيئة وذهابا ، وعندما تنظر إلى حواشى البحيرة وتشهد حقولها وشطـآنها الجميلة ، فسوف ينشرح فؤادك منها . . . قال الملك فأعد لى عشرين مجدافا مصفحة بالذهب . . . واستحضر عشرين امرأة لهن أجمل الجوارح والصدور مجدولات الشعر ممن لم يلدن من قبل ، كذلك فأتنى بعشرين شبكة فأعطها لهؤلاء النسوة بدلا من ثيابهن ، فنفذ كل ما أمر به الملك .

وطفقن يجدفن حتى انشرح صدر جلالته عندما شاهدهن كيف يجدفن .

ولكن إحدى رئيساتهن انشغلت بجدائل شعرها فسقطت (حلية لها فى شكل) سمكة من الفيروزج الجديد فى الماء فسكتت وتوقفت عن التجديف فسكت الصف الذى كانت على رأسه وتوقفن عن التجديف ، فقال جلالته ألا تجدفن إذن؟ فقلن : لقد سكتت رئيستنا فهى لا تجدف ، فقال جلالته لها : لم لا تجدفين ؟ فقالت إن سمكة الفيروزج الجديد قد سقطت فى الماء . فقال لها جلالته جدفى وسوف أعوضك عنها ، فأجابت بل أحبُّ إلىَّ ما عونى على مثيله ، عندئذ قال جلالته ، إذهبوا فائتونى برئيس المقرئين چاچام عنخ لجاء فى الحال .

فقال جلالته : چاجام عنخ أخى ، لقد فعلت كما قلت لى فانشرح قلب جلالتى عندرؤيتهن وهن يجدفن ، ولكن حلية فى شكل السمكة من الفيروزج الجديد لإحدى الرئيسات سقطت فى الماء فسكتت وكفت عن التجديف، كما أشاعت الاضطراب فى فريقها . . وقالت أحب إلى ما عونى من مثيله .

وعندئذ قرأ رئيس المقرئين عزائمه السحرية فطوى نصف ماء البحيرة على النصف الآخر .ووجد حلية السمكة على قطعة من الفخار فالتقطها وسلمها لصاحبتها .أما الماء فكان عمقه اثنى عشر قدما ثم صار أربعة وعشرين بعد طيه ، ثم تلا عزائمه السحرية وأعاد المياه إلى مكانها. وأنفق جلالته اليوم فى مرح مع أهل القصر جميعاً ، وكافأ رئيس المقرئين چاچام عنخ بكل شىء طيب .

ثم وقف الأمير حرچدف ليتكلم فقال : إنما سمعت أمثلة مما عرفوا أنه حدث قبلنا ، وما يدرى أحد الحق من الباطل ولكن هناك ساحراً فى عهدك هذا : فقال جلالته من هو ياحرچدف يا بنى؟ فقال الأمير حرچدف : إنه مدنى يدعى چدى ويقيم فى چدسنفرو ، وهو مدنى بلغ من العمر ١١٠ عام ويأكل خمسمائة رغيف من الخبز ، ومن اللحم فخذ ثور ويشرب مائة إبريق من الجعة حتى اليوم، ويعرف كيف يلحم رأساً مقطوعاو يعرف كيف يحمل الأسد على أن يتبعه مجررا خطامه على الأرض ، ويعرف عدد مغاليق مصلى تحوت .

وكان جلالة الملك خوفو يومئذ دائم البحث عن مغاليق مصلى تحوت ليصنع لنفسه مثلها فى أفقه (هرمه) فقال جلالته : أنت بنفسك ياحرچدف يا بنى تحضره إلىّ ؛ فأعدت السفن للأمير حرچدف حيث صعد فى النهر حتى

چدسنفرو . فلما رست السفينة إلى الشاطىء واصل مسيره برا حيث جلس في محفة من الأبنوس قوائمها من خشب « سسنم » مطعم بالذهب .

ولما وصل إلى جدى وضعت المحفة ووقف ليسلم عليه حيث وجده مضطجعاً على حصير عند عتبة بيته ،وقد وقف خادم يمسح رأسه وآخر يدلك قدميه ، فقال له الأمير حرچدف : إن حالك كحياتك قبل الطعن فى السن وقبل الشيخوخة ، حيث الرحيل وحيث الكفن وحيث الدفن ، وما زلت تنام حتى الضحى بريئا من الداء بغير بلوغ أرذل العمر ، التحيات أيها الوقور لقد أقبلت هنا أدعوك برسالة من والدى خوفو أن تأكل أطايب مايعطى الملك من طعام لمن هم فى خدمته ، حتى يبلغك بعد حياة طيبة إلى آبائك الذين هم فى عالم الأموات.فقال چدى : سلاما سلاما ياحرچدف ، أنت ابن الملك حبيب أبيه . ثم بسط الأمير إليه يده فعاونه على النهوض ، ثم سار به إلى ضفة النهر وقد أعطاه يده أثناء ذلك . ثم قال چدى : مر بسفينة تعطى لى أحمل فيها الأولاد وكتبى معى فوضعت سفينتان برجالهما تحت تصرفه ، ولكن چدى أبحر فى السفينة التى فيها حرچدف .

ولما وصل إلى القصر دخل الأمير حرچدف ليخبر جلالة الملك خوفو فقال الأمير حرچدف : مولاى الملك ، لقد أحضرت چدى .فقال جلالته : اذهب فاحضره لى وذهب إلى قاعة العمد فى قصره حيث أحضر چدى إليه فقال جلالته.كيف كان ذلك ياچدى أنى لم أرك قط من قبل ؟افقال چدى : من دعى فليجب ، لقد دعانى العاهل وها قدأتيت، فقال الملك : أحقا مايقال من أنك تلحم رأساً قطعت ؟ فقال چدى : نعم أستطيع يا مولاى الملك فقال الملك ، ائتونى بسجين من السجن حتى توقع عليه عقوبته فقال چدى : ولكن على غير رجل يا مولاى . أليس من الخير أن يؤدى ذلك على الماشية

السامية؟ فأحضرت اليه إوزة قطع رأسها ثم وضعت الإوزة فى الجانب الغربى من القاعة ورأسها فى الجانب الشرقى من القاعة ثم قرأ چدى عزائمه السحرية فقامت الأوزة تصيح ورأسها كذلك ، فلما مس أحد جزأيها الآخر قامت تصيح ، ثم أحضرت بطة ففعل بها مثل ذلك. ثم أمر جلالته فأحضر له ثور فأسقطت رأسه فى الأرض وتلا چدى عزائمه السحرية فقام الثور وراءه وقد سقط خطامه فى الارض .

ثم قال الملك خوفو لقد قيل إنك تعرف عدد مغاليق مصلى تحوت ، فقال چدى ، «فذلك يسرك إذن؟! إننى لا أعرف عددها يا مولاى الملك ، ولكنى أعرف مكانها ، فقال جلالته : فأين ذلك؟ فقال چدى : هناك صندوق من الصوان فى الغرفة التى تسمى « الإحصاء » فى عين شمس ، أنظر، إنها فى هذا الصندوق ، ثم قال چدى : مولاى الملك أنظر ، ولست أنا بالذى يحضرها لك فقال جلالته : فمن إذن يحضرها إلىَّ فقال چدى : أكبر الأطفال الذين هم فى رحم ردجدت هو الذى يحضرها لك ، فقال جلالته ، ولكنى أحب أن تقول من تكون ردچدت هذه ، فقال چدى : هى زوجة كاهن رع رب سخبو وقد حملت بثلاثة أطفال من رع رب سخبو وقد قال إنهم سوف يتولون هذه الوظيفة الممتازة[1] فى الأرض كلها، وسوف يكون أكبرهم الكاهن الأعلى فى عين شمس ، فحزن قلب جلالته لذلك ، فقال چدى عفوا ما هذا المزاج يا مولاى الملك . أمن أجل الأطفال الثلاثة ؟ ولكنى أقول لك : ابنك ثم ابنه ثم واحد من هؤلاء فقال جلالته : متى تلد ردچدت هذه .

— سوف تلد فى اليوم الخامس عشر من أول أشهر الشتاء .

ثم نهض جلالته إلى قصره وقال : تعطى الأوامر بأن يستضاف چدى فى بيت الأمير حرچدف وأن يقيم معه وأن يرتب عطاؤه بألف رغيف من

---

(١) أى الملك .

خبز ومائة إبريق من جعة وثور ومائة حزمة من ثوم ، ونفذ كل ما أمر به جلالته .

وفى يوم من هذه الأيام حدث أن أحست ردچدت بآلام المخاض فقال جلالة رع رب سخبو لإيزيس ونفتيس ومسخنت وحقت وخنوم ، انهضن فاذهبن لمساعدة ردچدت على الأطفال الذين هم فى رحمها ؛ أولئك الذين سوف يتولون هذه الوظيفة الممتازة فى هذه الأرض كلها ، ولسوف يبنون معابدكم ويزودون مذابحكم بالقرابين ويملأون موائد شرابكم ويزيدون قرابينكم .

وذهب الآلهات بعد أن اتخذن هيئة الراقصات ومعهن خنوم يحمل المحفة ، وأقبلن على بيت رع وسر (زوج ردچدت) فوجدنه واقفا متهدل الثياب فقدمن اليه قلائدهن ودفوفهن فقال لهن : سيداتى إن هنا سيدة فى المخاض فقلن : دعنا نراها فنحن نحسن التوليد. فقال لهن : تعالين ، فدخلن على ردچدت وأغلقن عليهن باب الحجرة وجلست إيزيس أمامها ونفتيس وراءها واسعفت مسخنت الولادة (وتمخضت المرأة عن ثلاثة ذكور متوجين عليهم أمارات الملك فغسلنهم وقطعن حبال سرتهم وقالت مسخنت لكل واحد منهم ملك يتولى الملك فى كل البلاد) ، ثم خرجن من عند ردچدت فبشرن رع وسر الذى شكرهن وكافأهن بمقدار من شعير حمله عنهن خنوم .

فلما مضين لسبيلهن من حيث أتين، قالت إيزيس لهذه الآلهة : ماذا يعنى مجيئنا إليها ولم نأت بمعجزة لهؤلاء الأطفال حتى نحدث أباهم الذى أرسلنا ؛ ثم إنهن وضعن ثلاثة أكاليل وضعنها فى الشعير، ثم أثرن العواصف والأمطار أن تأتى فى السماء وعدن إلى البيت فقلن : نرجو منكم أن تدعونا نضع

الشعير هنا فى حجرة مغلقة حتى نعود ، ووضعن الشعير فى حجرة مغلقة .

ولما تطهرت ردچدت طهور الأيام الأربعة عشر قالت لخادمتها : هل أعد البيت فقالت : لقد أعد بكل شيء طيب فيما عدا الأوانى التى لاسبيل لاحضارها فقالت ردجدت ، ولم لايمكن احضارها؟ فقالت الخادمة ، لاشيء يمكن عمله من أجل شعير الراقصات وهو فى حجرة مغلقة بخاتمهن. فقالت ردچدت : اذهبي فائتنى بشيء منه وسوف يعوضهن رع وسر عند عودته .

وذهبت الخادمة ففتحت الحجرة ، فكان أن سمعت فى الحجرة غناء وموسيقا ورقصا ، وكل ذلك مما يكون تمجيدا للملك ، فذهبت فحدثت ردچدت بكل ما سمعت ، فطافت هذه فى الحجرة ولكنها لم تجد مكان هذا الذى يحدث، فوضعت جبينها على الوعاء فوجدت أنه فيها، فوضعته فى صندوق ربطته بجلد ووضعته فى غرفة تحوى أوانيها وأغلقت عليها ، فلما عاد رع وسر من الحقل حدثته بذلك الأمر، فسر سرورا عظيما وجلسا منشرحين .

ومرت أيام عديدة على ذلك ، وكان أن غضبت ردچدت على خادمتها لأمر من الأمور فعاقبتها بضربها ، فقالت الخادمة لمن فى البيت من الناس . لقد ولدت ثلاثة ملوك ، لأذهبن فأخبر جلالة الملك خوفو بذلك ، وكان أن ذهبت حيث أخوها لأمها يعقد خيوط الكتان فى الجرين فقال لها أين تذهبين أيتها الفتاة الصغيرة فحدثته بالأمر فقال لها أخوها أتراك أتيت الى لأشترك فى الخيانة ، ثم تناول جديلة من الكتان فأصابها بضربة شديدة .

ثم كان أن ذهبت تغترف لنفسها حفنة من ماء فأمسكها تمساح . وذهب أخوها ليحدث ردچدت بذلك فوجدها جالسة ورأسها على ركبتها مثقلة الفؤاد جدا؛ فقال لها : سيدتى ؛ لماذا تبدين هذا المزاج ، فأجابت : إنها تلك الصغيرة التى تربت فى البيت؛ انظر ، لقد ذهبت تقول : سأكشف السر ،

وعندئذ مال برأسه وقال : سيدتى لقد جاءت الى تحدثنى . . . فضربتها ثم ذهبت تغترف لنفسها قليلا من الماء فأخذها تمساح .

* * *

وبعد ، فهذه قصص ثلاث بقيت لنا من بردية وستكار . وهى تكاد تشبه فى تعاقبها واحدة من بعد الأخرى قصص ألف ليلة وليلة ، ولقد رويت هذه القصص على ألسنة الأمراء من أبناء خوفو فى سمرهم معه ، كل أمير يروى معجزة من حديث الأولين ، وما ندرى لعل البردية لو كانت وصلت إلينا سليمة لقدمت الينا تسع قصص يرويها أبناؤه التسعة .

على أن القصص وإن بدت فى ظاهرها عديمة الارتباط بين بعضها وبعض ، فهى فى واقع الأمر تمهيد مدبر على جانب من ذكاء ودهاء للقصة الأخيرة ، وما أريد لها من هدف الدعاية والتبشير لملوك الأسرة الخامسة من عباد رع ، بحيث يعلن خوفو بزوال ملكه وانحسار دولته فى وجهه وفى عقر داره ، مع حمله على التسليم بالقضاء بتخفيف وقعه عليه فيقول له الساحر « ابنك ثم ابنه ثم واحد من هؤلاء » ، وهو انما يصدر حكمه بهذه الكلمات عليه بانقضاء دولته وانتهاء عقبه .

وتبلغ روعة التصوير ذروتها فى ذلك الحوار الماهر الذى ساق القصة بين الملك والساحر وما فيه من تصوير حى لقلق الملك العميق ولهفته فى السؤال وحرصه على الرد ، وهو حوار نستطيع مطمئنين أن ننقله بنصه فى مسرحية من مسرحياتنا الحديثة دون ما تغيير ولا تبديل . فلا ينبو عن أذواقنا ولا يقصر فى التشويق والتأثير .

على أن القصص التى حفظت لنا إنما تدور حول السحر والسحارين ،

حيث يخرج الناس فيها من عالم الواقع إلى عالم الخيال ، وذلك مما يبين لنا حب المصريين لقصص السحر وخوارق الأعمال ، وما نسبوه إلى خوفو من حبه السحر وإقباله عليه . ويصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس فى العصور القديمة من خيالات يحققها السحر ويعين عليها . فاستحالة الجماد إلى كائن حى وتماسك الماء تماسكا يمكن من طيه أوشقه ثم احياء الميت أوجمع أعضائه المتفرقة ، كل ذلك مما تعلقت به أوهام الناس فى القديم .

على أن ما روى من الخوارق فى هذه القصص إنما يذكرنا بما نزل على الأنبياء من الخوارق والمعجزات . فدمية التمساح التى استحالت إلى تمساح عظيم أرهب الملك فلما التقطه أوبا أونر عاد سيرته الأولى ، إنما تشبه عصا موسى . « فألقاها فإذا هى حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى »[1] وقد أقبل موسى يتحدى المصريين الذين اشتهروا بهذا « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » وتشبه كذلك ما قيل على لسان المسيح « واخلق لكم من الطين كهيئة الطير ثم أنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » كما يذكرنا التمساح وقد غاص بالفتى المدنى سبعة أيام لا يتنفس بقصة يونس وقد التقمه الحوت فلبث فى بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليال[2] .

ثم نمضى إلى القصة الثانية من قصص ولد خوفو فنجد فيها كيف شق

---

(١) انظر كذلك : سفر الخروج أصحاح ٤ آية ٢

(٢) سورة الصافات آيات ١٣٩ - ١٤٥ وكذلك سفر يونان اصحاح ١ - ١٧ وسورة الشعراء آية ٦٣ .

الماء وتراكم بعضه على بعض ، حتى ظهر قاع البحيرة مما يذكرنا بخروج بنى إسرائيل « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم[١] .

وأما قصة جدى وإعادته الرأس المفصول إلى الأوزة والثور فلا شك تذكرنا بقوله تعالى : « وإذ قال ابراهيم رَبِّ أرِنى كيفَ تُحْيِي الموْتى قال أوَلمْ تؤْمِنَ قال بَلىَ وليكن ليطمئنّ قلبى قال فخذ أربعةً من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءاً ثمَّ ادعهنَّ يأتِينكَ سَعياً[٢] » .

كما تشبه القصة الأخيرة وما كان من حرص ردچدت على اخفاء مواليدها الثلاثة عن الملك خوفو قصة مولد موسى وحرص أمه على إخفائه عن فرعون ، وتشبه مولد المسيح والخوف عليه من هيرودس الملك .

وبعد ، فلعلنا بدراستنا للأدب المصرى ندرك الحكمة من نزول المعجزة بالصورة التى نزلت بها ، فما كانت لتنزل إلا فى أمر من واقع حياة الناس وما يدور بأذهانهم فتكون محققة فى أعينهم لشىء طالما فكروا فيه وسمروا به وتخيلوه .

---

(١) كذلك سفر الخروج ١٤ عدد ٢٢

(٢) سورة البقرة

العصر الذهبي للأدب

١ — أواخر الدولة القديمة وعصر الانتقال الأول

٢ — الدولة الوسطى وعصر الانتقـــال الثانى

أحاديث ايبوور

إن الرجل ليذهب إلى حرثه ودرعه معه ، أنظر ، لقد شحبت الوجوه وأصبح الرماة متحفزين فى كل مكان ، لقد انعدم رجل الأمس ، ولكن اللصوص فى كل مكان ، إن النيل ليفيض ولا من يحرث ، وكل امرىء يقول إننا لا ندرى ماذا نزل بالبلاد . ولقد عقمت النساء فهن لا يحملن ، وأصبح الكثير من الموتى يدفنون فى النهر ، والقنوات قبور ، وأصبح العظيم مفعما بالأحزان والفقير مفعما بالأفراح . . ويقول أهل كل مدينة دعنا نطرد الأقوياء من بيننا، أنظر إن الصروح والأساطين والجدران قد نسفت بالحرائق... ودمرت المدن وأصبح الصعيد مقفرا . وزحفت الصحراء على البلاد .

أنظر ، وإن الأحمق ليقول : لو أنى عرفت أين الإله لقدمت له القرابين. لقد أصبحت الوقاحة فى الناس جميعاً وإن الرجل ليقتل أخاه .

ألا ليتنى رفعت صوتى من قبل . إذن لتجنبت الآلام التى أنا فيها الآن أنظر ، إن الكبير والصغير يقول : يا ليتنى مت ، والأطفال يقولون ما كان ينبغى أن نخرج إلى الحياة .

كاره الحياة وحواره مع روحه

وهذا حوار بين رجل سئم الحياة وفكر فى الانتحار، وبين روحه التى تزين له البقاء، إنه السؤال الأبدى فى معنى الحياة، وهو نفس السؤال الذى طرحه شكسبير فى رواية هملت «وجود أو لا وجود» :

أنظر ، إن اسمى مقيت .
أنظر ، أمقت من رائحة الطير
فى يوم صيف والسماء لافحة
أنظر ، إن اسمى مقيت
أنظر أمقت من اسم الزوجة
حين تتهم بالإفك عند زوجها

* * *

لمن أتحدث اليوم
والإخوان أشرار
وأصدقاء اليوم لا يستأهلون الحب
لمن أتحدث اليوم
وقد نؤت بالشقاء
وقد عز الصديق الحميم
لمن أتحدث اليوم
والشر الذى نزل بالبلاد
لا آخر له

* * *

إن الموت أمامى اليوم .
كالشفاء الذى يعود إلى المريض
وكالمشى فى الخارج بعد المرض
إن الموت أمامى اليوم
كعبير زهور اللوتس
وكجلوس المرء على شاطىء النشوة
إن الموت أمامى اليوم
كالطريق المعبد
وعودة الرجل من القتال إلى مثواه
إن الموت أمامى اليوم
كحنين المرء لرؤية بنيه
وقد أنفق السنين فى الأسر

* * *

وهذا ما قالت روحى :
الق عنك هذا الحزن أيها الأخ الزميل
إننى باقية هنا إن انصرفت عن الغرب[١]
أما إذا انتهيت إلى الغرب فرقدت فى الأرض
فسوف أهبط حيث تستقر
وليكن لنا مستقر واحد

---

(١) هى الجبانة ويكنى بذلك عن الموت .

الدعوة إلى المرح فى الدنيا

وهذه أغنية من اشهر أغانى الدولة الوسطى نقشت فى قبر الملك اينتف أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة وتعرف بأسم أغنية العازف على الجنك :

تذهب أمم وتحل أمم
منذ عهد الذين كانوا قبلنا
إن الأرباب الغابرين يستقرون فى أهراماتهم
وكذلك الأشراف والمقربون

دفنوا فى أهراماتهم
إن هؤلاء الذين ابتنوا الديار
إذا ديارهم كأن لم تكن
أنظر ماذا نزل بها

لقد سمعت قول إيمحتب وحرچدف
أولئك الذين يتحدث الناس بكلامهم
أين ديارهم الآن
لقد تهدمت حوائطهم
وانعدمت ديارهم
كأنها لم تكن
أن أحدا لا يأتى من هناك
ليحدثنا بحالهم
ويخبرنا بحاجاتهم
ويرد قلوبنا إلى الراحة
حتى نذهب حيث ذهبوا

افرح حتى تنسى قلبك

ان الناس سوف يترحمون عليك

وزد ما عندك من مسرات

ولا تدع قلبك يبتئس

وافعل ما يحلو لك فى الأرض

حتى يأتيك يوم النحيب

فإن ساكن القلب[1] لا يسمع العويل

ولا ينقذ الصراخ إنسانا من عالم الأموات

---

(١) ساكن القلب من ألقاب أوزيريس رب الموتى.

النصائح الموجهة إلى الملك مريكارع من أبيه

وصلت هذه التعاليم الينا على بردية كتبت فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ولكن علماء اللغة المصرية القديمة لا يترددون فى إرجاعها إلى تاريخ سابق ونسبتها إلى ملك من ملوك إهناس فى عصر الفوضى الأول فى أعقاب الدولة القديمة. وكانت مصر يومئذ ميدانا لحروب متصلة بين حكام الأقاليم بعضهم وبعض ، حتى قام ملوك الأسرة الحادية عشرة فى طيبة فبسطوا سلطانهم على أقاليم مصر جميعاً .

وأبرز ما فى هذه التعاليم ما فيها من النصائح السياسية التى يوجهها ملك إلى ولده وولى عهده ، حيث يبين له فيها من سياسة الحكم وما ينبغى أن يتبعه الملك من القسوة والعنف تارة ، ومن الرفق واللين تارة أخرى ، وذلك مع حسن سياسة الجماهير والتأثير فيهم بحسن الخطاب ، على أن يتزود الحاكم بما فى الكتب من العلم وأن يتمثل بالسلف الصالح :

معاملة الثوار :

أما من كثر أتباعه ، وحسن فى عيون العبيد ، وكثر كلامه فنصيحة الملك هى أن : اقض عليه واقتله وامح اسمه . اقتلع ذكراه وذكرى أتباعه الذين يحبونه ، فإن سبب متاعب المواطنين الرجل المشاغب .

فإذا وجدت المواطنين يلوذون به . . . فاستدعه أمام رجال الحاشية ثم اقض عليه فهو عدو كذلك .

البلاغة والحكمة :

كن ماهراً فى الخطاب حتى تسود فإن القوة فى اللسان والخطاب أقوى من كل قتال .

اقتد بآبائك الذين ذهبوا من قبلك . . . أنظر إن كلامهم (الحكيم) باق فى الكتب ، فافتح واقرأ واقتد بالعلم ، بذلك يكون الصانع كذلك حكيما[1] .

السماحة واللين :

لا تكن فظاً ، فمن الخير أن تكون شفيقاً .

وخلد آثارك بأن تكون محبوباً .

يحمد الناس الرب من أجلك ويشكروا إحسانك

ويدعوا لك بالصحة .

مجد العظيم واسعد شعبك .

ومن الخير أن تعمل للمستقبل .

الموظفون :

وسع على مستشاريك حتى ينفذوا قوانينك فالغنى فى بيته لا يتحيز ، وصاحب المال لا يحتاج لشىء ، إذ الفقير لا يتكلم بالحق ، والقائل «يا ليت لى» لا يعدل فإنه يحابى من يؤدى إليه العطايا .

إن العظيم من كان له المستشارون العظام .

---

(١) وذلك أن الصانع إذا ما فتح الكتب فقرأها واقتدى بما فيها من الحكمة صار حكيما ، فليس العلم وقفاً على طائفة من الناس ، ولكنهم جميعاً أهل لأن يكتسبوا الحكمة إذا طلبوها ، ولو كانوا من العاملين والصناع ، ولا شك أن فى قول الملك بذلك ديمقراطية بلغت مستوى رفيعاً فى ذلك العهد القديم .

والملك القوى من كانت له حاشية .
قل الحق فى بيتك حتى يخشاك النبلاء أصحاب السلطان .
فالأمور تيسر مع السيد ذى القلب السليم .
وإن دخيلة البيت هى التى تشيع الرهبة خارجه(١) .

سلوك الملك :

افعل الخير ما دمت فى الأرض حياً .
هدىء الباكى ولا تظلم أرملة ولا تخرج رجلا من ملك أبيه .
ولا تهن الحكام احتراما لمناصبهم ، واحذر أن تعاقب ظلما .
ولا تقتل من لا ينفعك ، وليكن عقابك (فقط) الضرب والسجن .
ولا تقتل رجلا تعرف فضائله .

التحذير من الحساب بعد الموت :

أما القضاة الذين يحكمون للمظلومين ، فأنت تعرف أنهم لن يكونوا رحماء فى ذلك اليوم ، حينما يقضون للبائسين ساعة تنفيذ الأحكام .
إنه الشقاء إذا كان المدعى هو الحكيم(٢).
لا تعتمد على تطاول السنين ، فإنهم يرون العمر ساعة(٣) .
وأن الانسان ليبقى بعد الموت حيث توضع أعماله الى جانبه اكواما
وإن الإنسان ليبقى هناك أبداً .

---

(١) أى أن سلوك الإنسان فى بيته يبعث على احترامه خارجه .
(٢) مقصود بالحكيم هنا الاله جحوتى (تحوت) رب الحكمة
(٣) لاتظن أن يوم الحساب بعيد وأن أعمال الانسان تهمل بعد طول السنين

وإنه لأحمق من يستخف بهم[1] .

أما من يأتيهم بغير ذنب فسوف يحيا كإله حيث يخطو فى جأش كأرباب الأبدية .

لا ترفع ابن عظيم على من كان ذا مولد وضيع .

ولكن خذ لنفسك الرجل لفضائله .

احم حدودك وقد قلاعك حتى تكون الجيوش فى خدمة قائدها .

هيء الآثار للإلة فهى تحي اسم بانيها .

وعلى المرء أن يفعل ما يفيد روحه ، وذلك بأداء شعائر الطهور الشهرية ولبس النعال البيضاء وزيارة المعابد وكشف الأسرار ودخول قدس الأقداس وأكل خبز المعبد .

(١) أى بالقضاة فى الآخرة

تعاليم الملك امنمحات لابنه سنوسرت

دل ما عثر لهذه التعاليم من نسخ متعددة وفقرات كتبها التلاميذ ، على ما كان لهذه القطعة الأدبية فى نفوس المصريين من الإعجاب والتقدير حتى الدولة الحديثة .

وكان امنمحات الأول ، رأس الأسرة الثانية عشرة ، قد تعرض للقتل غيلة ، وذلك بعد عشرين سنة من الكفاح والجهاد فى سبيل رقى البلاد ورفعة شأنها، فتأثرت نفسه للموجد من جحود الناس وكفرهم بالنعمة ونكرانهم للجميل ففقد الثقة بهم . ثم كان أن أشرك ابنه معه واعتزل الحياة السياسية أو كاد ، وإذا بالملك الشيخ يحدث ابنه بما وقع له ثم ينصح له ويبصره :

أما وقد أشرقت ربا فاستمع لما أقول لك

حتى تكون ملكا للأرض وتحكم الضفتين وتفعل الخير .

كن على حذر من الأتباع ، ولا تقترب منهم ولا تكن وحدك .

ولا تثق فى أخ ، ولا تعرف صديقا .

ولا تقرب اليك أحدا فذلك لا يفيد فى شىء .

فإذا غفوت فاحرس قلبك بنفسك .

فإنك عند الشدائد لا تجد الصديق

* * *

لقد أعطيت الفقير وغذوت اليتيم .

وأتحت لمن لم يكن شيئا أن يصل إلى هدفه .

كالذى كان ذا منزلة
فكان الذى طعم خبزى هو الذى غدر بى .
وكان الذى بسطت له يدى هو الذى أثار المخاوف مع ذلك
وإذا بالذين كسوتهم بفاخر الكتان ينظرون إلىّ نظرهم إلى ظل
لقد كان شخصى بين الأحياء وأسهمى فى الناس من (العطايا)
ومع ذلك فقد دبروا على المؤامرة دون أن تسمع
والخلاف الكبير دون أن يرى
واقتتل الناس حيث تقتتل الفحول
ونسوا ما كان بالأمس (من أفضالى)
إن الحظ لا يخدم من لا يعلم ، حيث ينبغى أن يعلم

قصة المؤامرة :

لقد كان بعد العشاء حين أقبل الليل
وقد استسلمت لساعة من راحة
ورقدت فى فراشى وقد كنت منهكا
وقد تداعى فؤادى للهجوع
فإذا الأسلحة كأنها سلت وكأنما كنت مطلوبا
فانبعثت كأفعى الصحراء ونهضت أقاتل وحدى
ووجدت أنه القتال يدا بيد مع حرسى
حين أسرعت فالتقطت سلاحى ورددت الأوغاد
غير أنه لا قوة فى الليل ولا يستطيع المرء وحده قتالا

ولن يأتى النجاح بغيرك تحمينى
أنظر ، لقد حدث الشىء البغيض حينما كنت بدونك
ولم يكن القصر قد سمع أنى قد تخليت لك
ولما أكن قد سكنت معك حتى أتصرف بمشورتك
أترى النساء دبرن المعركة ، وهل دبر الاغتيال فى البيت
هل خدع أهل المدينة بأفعالهم
إن الحظ السىء لم يتعقبنى منذ ولدت
ولم يوجد من يعدلنى سباقا للفضائل
لقد جست خلال سهيل وتجولت فى الدلتا
ووقفت على تخوم البلاد وجمعت حدودها
ودفعت حدود سلطانى بقوتى وتفوقى
لقد كنت منتج الشعير وأحببت نبرى[1] وحيانى النيل
فلم يجع أحد فى عهدى ولم يظمأ أحد إبانه
وعاش الناس فيما بسطت ولهجوا بذكرى

---

(١) اله الحصيد

قصة الفلاح الفصيح

حظيت هذه القصة أو هذه المقامة بكثير من الذيوع والانتشار أيام الدولة الوسـطى ، حيث ازدهر الأدب وأقبل الناس عليه يتذوقونه ويعجبون به . يدل على ذلك ما عثر لهذه القصة من نسخ ترجع إلى هذا العصر دون سواه . ولعل الناس فيما يظهر قد انصرفوا عنها أيام الدولة الحديثة فلم يقبلوا عليها ، ويرجع ذلك إلى أن الناس فى الدولة الحديثة قد انصرفوا عن الأدب التقليدى وما فيه من حسن السبك وجمال العبارة والبيان والبديع ، فقد كان حسب الناس منذ الدولة الحديثة أدب مرسل سهل العبارة بسيط الأسلوب هو أقرب إلى لغة العامة ، فكان إقبالهم يومئذ على مثل تلك الآثار الأدبية إقبال شبابنا اليوم على أدب ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وابن العميد أو مقامات البديع الهمذانى والحريرى .

وأبرز ما نجد فى تلك القصة إعجاب الملك بنكاورع ووزيره بفصاحة الفلاح وحرصهما على الاستماع إليه والاستمتاع بما يقول . وكان الملك بنكاورع امنمحات — فيما يبدو — أديباً يحب الأدب ويكافىء عليه ، وآية ذلك ما نرى فى هذه القصة من أمره برعاية الفلاح ورزقه ورزق عياله حتى يفصل فى أمره ، حتى لكأن بين أيدينا رواية من روايات الخلفاء من بنى العباس فى بغداد .

ولقد رأى بعض المؤرخين فى هذه القصة دليلا على ما ساد المجتمع المصرى يومئذ من الفوضى والاضطراب ولكنى إنما أرى فيها — عكس

ذلك — دليلا على رعاية العدل والانتصاف للمظلوم ، وآية ذلك إلحاح الفلاح ومثابرته على المطالبة بحقه وشجاعته فى تعنيف الحاكم دون خوف أو وجل . وقد كان الفلاح حليقاً أن يجبن لو كان غير ذلك . وما كان لينتصف الحاكم من ظالمه هذا الانتصاف ، وإنما أخر إنصافه حرص الملك على الاستزادة من بيانه . وذلك فضلا عن أن عهد الملك امنمحات قد عرف بالرخاء والعدل ، ولعل الكاتب إنما استوحى قصته تلك مما ساد قبل عهد ملوك هذه الأسرة ، أى قبل أن تتخلص مصر من آثار عهد الفوضى والإقطاع ، ثم بين بعد ذلك كيف أنصف الفــــلاح المظلوم فى عهد الملك العادل .

القصة

كان هناك رجل يدعى خنوم أنوب ، وهو فلاح من وادى النطرون ، وكانت له امرأة يقال لها مارية . فقال هذا الفلاح لزوجته هذه : « أنظرى إنى شاخص إلى مصر كى أجلب المؤونة لأولادى ، فانطلقى فاكتالى لى القمح الذى تركته فى المخزن ، فاكتالتها له فكانت ثمانية مكاييل .

ثم قال هذا الفلاح لامرأته : عندك كيلان طعاما لك ولأولادك ، ولكن اصنعى لى من المكاييل الستة الباقية خبزا وجعة عن كل يوم أنفقه هناك .

ثم كان أن هبط هذا الفلاح إلى مصر بعد أن حمل حماريه إلى إهناسية حيث وصل منطقة برفيونى شمال مدينيت ، وهناك التقى برجل كان واقفا على ضفة النهر يسمى چحوتى نخت بن رجل يدعى أسرى ممن يعملون فى ضياع السمير الأكبر رنسى بن مرو ، فقال چحوتى نخت هذا عندما رأى حمير هذا الفلاح وقد راقت لقلبه : « هل من علة قوية تمكننى من غصب ما لهذا الفلاح من مال ؟

وكان بيت جحوتى نخت هذا قائما على ممر ضيق غير عريض لا يجاوز عرض قطعة من الـكتان ، وكان أحد جانبيه تحت الماء فى حقل شعير ، فقال جحوتى نخت هذا لخادمه ، انطلق فاحضر ملاءة من بيتنا ، فلما أحضرت له فرشها على الممر بحيث يقع طرف منها على الماء والآخر على الشعير، فلما أقبل الفلاح من الطريق العام قال جحوتى نخت هذا : احذر أيها الفلاح أن تطأ ثوبى فقال الفلاح : سأفعل مايسرك فإن طريقى سوىّ ، وانحرف إلى أعلى، فقال جحوتى نخت هذا ، تراك تتخذ من شعيرى لك طريقا ، فقال الفلاح إن طريقى سوى ، فالضفة عالية ولا طريق لى إلا تحت الشعير ، ولـكنك مع ذلك تسد الطريق بأثوابك، تراك تريد منعنا من المرور على الطريق ؟

ولم يـكد ينتهى من مقالته حتى ملأ أحد حميره فمه بحزمة من الشعير ، فقال جحوتى نخت ، أنظر لآخذن حمارك أيها الفلاح لأكله شعيرى . . فقال هذا الفلاح لقد كان طريقا سويا ، ولما كان أحد جانبيه مسدودا فقد سقت حمارى على (الجانب الآخر) ، افتغتصبه عندئذ لملئه فمه بحزمة من شعير ، ولـكنى أعرف رب هذه الضياع، إنها للسمير الـكبير رنسى بن مرو ، إنه يلجم كل لص فى هذه البلاد كلها، أم ترانى اسرق فى ضياعه؟! فقال جحوتى نخت هذا : أليس هو المثل الذى يردده الناس « إنما يذكر اسم الفقير من أجل سيده » إننى أنا الذى يخاطبك على حين تفـكر أنت فى السمير الـكبير ثم تناول غصنا من الأثل الأخضر فانهال به على أعضائه كلها ، ثم أخذ حميره وساقها إلى ضيعته .

وبـكى هذا الفلاح بـكاء مراً لما وقع به من الأذى ، فقال جحوتى نخت هذا : لا تجأر بصراخك أيها الفلاح وإلا كان مصيرك مثوى رب الصمت فقال هذا الفلاح أتضربنى وتسرق متاعى ثم تريد الآن أن تنتزع الشكاة

من فمى ؟! أنت يارب الصمت ردعلىَّ مالى حتى أكف عن ذلك الصياح الذى يزعجك .

ولبث الفلاح عشرة أيام يتوسل إلى چحوتى نخت وهو لا يحفل به ، فدخل هذا الفلاح إلى إهناس ليرفع شكايته إلى السمير الكبير رنسى بن مرو ، فلقيه خارجا من باب بيته لينزل إلى زورقه الخاص بقاعة العدل . . . فقال : أيها السمير الكبير ، ياسيدى ، يا أعظم العظماء ، ويا قائدا على ما كان وما لم يكن ، إنك إن تهبط إلى بحيرة العدل فتبحر فيها بريح رخاء ، لم يتمزق شراعك ولم يبطىء سفينك ولم ينزل بساريتك مكروه ولم تتكسر مراسيك أو يجرفك التيار، ولم تذق أضرار النهر ولم تر وجها عبوسا .

أنت أبو اليتيم وزوج الأيم وأخو المنبوذة ورداء من لا أم له . . . دعنى أجعل لك فى هذه الأرض اسما جديرا بما هو خير من كل شىء ، يا قائدا بغير عيب ، ويا عظيما خالصا من الدنايا ، أنت يامهلك الباطل ومثبت الحق انبذ الشر . . . ارفع الظلم الذى وقع علىَّ وانظر كيف حملت بالشقاء، وانظر إلى ما بى من الضعف .

وكان هذا الفلاح قد وجه خطابه هذا فى عهد الملك نبكاورع المبرأ ، فذهب هذا السمير الكبير رنسى بن مرو إلى جلالته فقال : مولاى ، لقد عثرت على فلاح من هؤلاء الفلاحين فصيح حقا ، لقد غصب متاعه على يد رجل فى خدمتى ، أنظر ، لقد جاء يشكو إلىَّ ذلك ، فقال جلالته : إذا أحببت أن ترانى بصحة فابقه هنا ولا تجبه إلى مايقول حتى يواصل كلامه :. ثم مر بأقواله أن تحمل الينا مكتوبة لنسمعها ، على أن نوفر رزق زوجته وأولاده ، وأن تسهر كذلك على إمداده بالطعام دون أن يعلم أنك أنت الذى تمنحه إياه ، فكان أن أعطى عشرة أرغفة وأبريقين من جعة كل يوم

أمده بها السمير الكبير ، وكان يعطيها لأحد أصدقائه فيسلمها اليه ، كما أرسل السمير الكبير رنسى بن مرو إلى عمدة وادى النطرون ليرتب لزوجة هذا الفلاح مؤونة يومية مقدارها ثلاثة مكاييل :

[وأقبل هذا الفلاح ليرفع مظلمة ثانية فقال] :

« يا أيها السمير الكبير ، يا سيدى ، يا أعظم العظماء وأغنى الأغنياء . يا من يراك الأغنياء أغناهم . أنت سكان السماء ، أنت عماد الأرض ، أنت الشاقول الذى يحمل المثقال ، أيها السكان لا تتعثر ، أيها العماد لا تمل . أيها الشاقول لا تتذبذب .

الا ماذا عساك تحتاج فى بيتك ؟ إلى إبريق من جعة ورغفان ثلاثة ؟ فماذا أعددت لإرضاء الفقير ؟ ! ألن تكون من رجال الأبدية ، أليس خطأ أن يتأرجح الميزان ؟! أنظر . لقد ضلت العدالة تحتك فأزيحت عن موضعها . فالموظفون يقترفون الإثم . والأحكام جائرة والقضاة يسرقون . ومن وجب عليه أن يمنح الهواء للتنفس يأخذ الأنفاس . ومن عليه مقاومة الخطأ يقترف هو نفسه الإثم .

أنظر إنك قوى نشيط الذراع جرىء القلب . ولكن تجاوزتك الرحمة.

كن الملجأ واجعل مرساك جيدا

ووجه لسانك للحق ولا تتبع طريق الضلال

ولا تقل زورا وراقب الحكام

[وعلى هذا النحو يمضى الفلاح فى شكواه والحاكم لاه عنه استزادة من بيانه . وكان كلما تباطأ الحاكم عن إنصافه اتبع هو شكواه بأخرى ترق حينا وتعنف أكثر الأحيان . وقد سئم الحاكم يوما من عنف لهجته فأمر فضرب بالسياط فزادت حملة الفلاح عليه وقال] :

إن ابن مرو أعمى عما يرى ، أصم عما يسمع ، سادر عما يروى له

يا مدينة بغير عميد ، وجماعة بغير رئيس

وسفينة بغير ربان ، وفريقا بغير قائد .

أنظر ، إنك لص ، حاكم يصادر الفلاحين

ورئيس مقاطعة يجب عليه القضاء على النهب

ولكنه يصبح نموذجا لمرتكبيه

[ثم يعود إلى التوسل فيقول] :

لا تسرق وضيعا أملاكه ولا ضعيفا تعرفه .

إن أملاك الفقير أنفاسه ، ومن أخذها منه فقد كتم أنفاسه، لقد عينت لتسمع الشكايات وتفصل بين الخصوم وتقضي على اللصوص . لقد وضع الناس فيك ثقتهم ، فأصبحت معتديا ، وإنما أقمت سدا منيعاً للفقير تحميه من الغرق

أيها السمير الكبير ، مولاى ، أقم الحق ، أقم الخير ، إن زارع الشر يروى آثامه بالشر (ولكن) الحق باق أبدا ، وهو ينزل مع فاعله إلى العالم الآخر عندما يدفن ويختلط بالأرض . فلا يمحى اسمه من الأرض ولكنه يذكر اصلاحه . وذلك ما ورد فى كلام الله .

إن لسان الرجال موازينهم

لا تحجب وجهك عمن تعرف ، ولا تتعام عمن ترى، ولا تردمن يسألك .

[حتى إذا أعيت الفلاح الحيل ختم شكاياته بقوله]:

أنظر . لقد شكوت اليك فلم تسمعنى ، أفأذهب عنك فأشكوك إلى أنوبيس ؟! [1]

وأمر السمير رنسى بن مرو اثنين من رجاله أن يذهبا ويعودا به .وخاف

---

(١) رب الجبانات

الفلاح أن يعاقب على أقواله التي قالها ، ولكن رنسي بن مرو قال له : لا تخش شيئا أيها الفلاح . أنظر ، لسوف تسكن معى . أقبل لنسمعك شكاواك : ثم قرئت عليه من قرطاس بردى جديد ، كل شكوى بما تحتويه . ثم أمر السمير الكبير رنسي بن مرو . فأرسلت إلى جلالة الملك بنكاورع المبرأ فسر بها الملك أكثر من أى شيء فى الأرض كلها ، ثم قال الملك : أصدر أنت حكمك يا ابن مرو . فأرسل السمير الكبير ابن مرو اثنين من رجاله . . . فأحصيت أملاك چحوتى نخت وأعطيت للفلاح .

أنشودة النيـــل

حمداً لك أيها النيل

يا من خرجت من الأرض وأقبلت تغذو مصر

إن من يروى البرارى هو الذى خلقه رع

ليغذو الماشية جميعاً

وهو الذى يسق الصحارى وإن بعدت عن الماء

فإن منه الندى الذى يهمى من السماء

إنه حبيب جب مدير إله الحصيد

إنه سيد الأسماك

وصانع الشعير وخالق القمح

إذا هبط كانت الأرض كلها فى فزع

وحزن الكبير والصغير

وإذا ارتفع كانت الأرض فى احتفال

وكل امرىء فى حبور

قصة سـانوهى

أتيح لهذه القصة من الذيوع والانتشار ما يدل على أنها كانت من أحب القصص إلى قلوب المصريين منذ الأسرة الثانية عشرة ، لما حظيت به من التداول والانتشار ، ولقد أجمع العلماء على أنها مثال راق لأروع ما ورد من آداب المصريين ، بل منهم من رفعها إلى ما فوق ذلك . ولم تكن وقائع هذه القصة كلها من ضروب الخيال ولكنها إنما كانت تعبر عن وقائع وأحداث من التاريخ الذى لا خيال فيه ، فقد كان سانوهى أميراً ، وما ندرى لعله اتهم فيما كان من صراع على العرش تعرض فيه الملك امنمحات للاغتيال ، فى مؤامرة لعلها فشلت ولكنها أنتجت لنا على كل حال أدبا جميلا جرى على لسان الملك وهو يعظ ولى عهده وقد صدمه الجحود والغدر .

القصـة

[تبدأ بمقدمة يذكر فيها سانوهى ألقابه ووظائفه ثم يقول] :

فى العام الثلاثين ، فى الشهر الثالث من فصل الفيضان ، اليوم السابع ، ذهب الرب ملك الشمال والجنوب سحتب ايب رع إلى أفقه وصعد إلى السماء حيث اتحد مع قرص الشمس واختلطت أعضاؤه بمن خلقها ، فإذا القصر قد ران عليه الصمت والقلوب فى حزن ، وإذا البابان قد أغلقا حيث جلس رجال الحاشية وقد انحنت منهم الرؤوس على الركب ، على حين طفق الناس من حولهم يبكون .

وكان جلالته قد وجه جيشاً إلى بلاد التمحو وجعل على رأسه بكر أبنائه الاله الطيب سنوسرت ، وقد أرسل ليضرب البلاد الأجنبية ويسحق

هؤلاء الذين كانوا من التحنو، فلما عادساق معه الأسرى من التحنو مع الماشية التى لا حصر لها من كل نوع .

وأرسل الموظفون من سمار الملك بالقصر من البر الغربى لينقلوا للملك ماحدث فى القصر ، فكان أن لقيه الرسل فى الطريق ولحقوا به وقد جن الليل ، فلم يبطىء لحظة واحدة، وإذا بذلك الصقر الملكى يطير عائداً مع أتباعه دون أن يعلم جيشه ، ولكن رسولاً آخر كان قد بعث خلسة إلى سائر أبناء الملك ممن كانوا معه فى الجيش فهرعوا إلى هناك .

ولقد كنت قائماً هناك عن قرب حين أقبل الرسول فسمعت صوته وهو يحدثهم . فإذا قلبى يضطرب وذراعاى تتراخيان ، والفزع يدب فى أعضائى جميعاً ، فاندفعت أبحث عن مختبأ أتوارى فيه ، فجعلت نفسى بين شجرتين حتى أجد الطريق الذى أسلكه .

وكان أن وليت وجهى شطر الجنوب فقد قررت ألا أعود إلى القصر إذ قدرت أن فتنة سوف تقع هناك ولا أستطيع القول بأنى سوف أعيش بعدها . ثم عبرت بعد ذلك مياه ماعتى عند مزارع الجميز ثم نزلت إلى جزيرة سنفرو حيث أنفقت النهار فى الحقول ، فلما استأنفت الرحيل حينما تنفس الصبح لقيت رجلا كان يعترض طريقى فحيانى فى احترام ولكنى فزعت منه . ولما كان موعد العشاء كنت قد ألممت بمدينة نجاو فعبرت فى زورق غير ذى مجداف بمعونة ريح الغرب فوصلت إلى الشرق عند محاجر سيدة الجبل الأحمر .

ثم كان أن سلكت الطريق إلى الشمال فبلغت أسوار الأمير التى شيدت لصد البدو وضرب جوابى الرمال ، هناك ركعت بين الشجيرات فقد خفت

الحرس من القائمين بالرقابة هذا اليوم أن يرانى . ثم أنفقت الليل ماشياً حتى إذا كان فجر الغد ، كنت قد بلغت پتن ، ولكنى ما أن بلغت جزيرة كم أور حتى سقطت من الأعياء وقد انهكنى العطش والحر على ، وضاق صدرى وصعب تنفسى ، والتهب حلقى بالغبار والجفاف : فقلت : «ذلك طعم الموت» . ولكنى قويت نفسى واستجمعت أطرافى وقد سمعت خوار قطيع من الماشية ولمحت البدو من بعيد . . . وإذا شيخ القبيلة هناك يتعرف على إذ كان قد زار مصر من قبل ، فقدم لى ماء وطبخ لى لبنا ، ثم صحبته إلى قبيلته فلقيت منهم خيراً كثيراً .

ثم مضيت تسلمنى بلد إلى بلد ، فغادرت بيلوص وعدت إلى قدم حيث أنفقت هناك عاما ونصف عام . ثم كان أن أخذنى ننشى بن عامو أمير رتنو العليا قائلا : لسوف تكون معى آمنا وستسمع هنا لسان مصر ، وهو إنما قال ذلك لأنه كان يعرف منزلتى ولأنه سمع الحديث عن حكمتى ، وقد شهد لى بذلك جماعة من المصريين كانوا عنده . قال لى : فيم أنت هنا وكيف بلغت بك الحال كذلك ، هل وقع فى القصر شىء قلت : لقد رحل الملك سحتب ايب رع إلى أفقه ، وما يدرى امرؤ ماذا عسى أن يحدث بعد ذلك ، ثم حدثته كاذباً بأنى كنت عائداً من حملة على بلاد التمحو عندما ابلغت خبراً اضطربت له نفسى ودفعنى قلبى الذى لم يعد فى صدرى إلى الصحراء ، ومع ذلك فلم يذكرنى أحد بسوء ولا تلقيت عبارة ملام . . . لست أدرى من ذا الذى جاء بى إلى هنا ، لكأنما هو قدر من الاله . فقال لى : ماذا تستطيع هذه البلاد أن تفعل بدونه ذلك الاله الخير ، الذى ذاعت رهبته فى البلاد كلها كما ذاعت سخمت[1] عام الطاعون

فأجبته قائلا[2] : لقد دخل ابنه القصر فملك إرث أبيه ، إنه الاله الحق

(١) معبودة فى شكل لبؤة كانت موضوع اساطير قديمة منها اسطورة اهلاك البشر

(٢) كأنما أحس سانوهى بأن حديثه قد انطوى على مغمز . الملك الجديد =

الذى لاشبيه له والذى لا يفوقه أحد ، إنه رب السجاحة ذو الرأى المتين ، بأمره كل شاردة وواردة ، وهو الذى أخضع البلاد الأجنبية على حين كان أبوه فى القصر يصدر الأوامر ثم يحدث أباه بتنفيذ أوامره . . . وهو الذى لا يعيد ضربته إذا قتل . . .

قلت له : اكتب إليه ودعه يعرف اسمك ، ولا تذكره بسوء فلن يقلع عن أداء الخير لكل أمة تظل على الولاء له . فقال لى : حقا ما أسعد مصر أن تقدر قوته . . . أما أنت فقيم عندى فواجد كل خير ، وإذا هو يجعلنى على على رأس بنيه ويزوجنى كبرى بناته ، وقد أذن لى أن انتقى من بلاده خير ما يملك عند تخوم بلد آخر ، وكان بلداً طيباً اسمه «يا» فيه تين وعنب وفيه نبيذ أوفر من الماء ومقادير من العسل وزيت الزيتون وفاكهة من كل لون فضلا عن الأشجار ، وكان فيها الشعير والقمح ، ومن بهيمة الأنعام مالا يحصيه عد ، مع ما كان يصل إلىَّ من علائم حب الناس . فكان أن جعلنى شيخا لقبيلة فى أحسن أقاليم بلاده ، وأصبح الخبز يقدم إلىَّ دائما والنبيذ لشرابى كل يوم مع اللحم المطهو ، والطير المشوى فضلا عن حيوان الصحراء وما كانت تجلبه كلابى من الصيد . . . وكذلك أنفقت السنين الطوال هناك حيث انجبت أولاداً شبوا فتيانا لكل منهم رهطه الذى يدين له، وكان الرسل ممن يذهبون إلى الشمال أو الجنوب قاصدين القصر ينزلون بيتى ، ذلك أنى

= بقوله إنه إنما ترك مصر لجهله بما قد يحدث فيها بعد سحتب ايب رع (امنمحات) وشعر بأنه قد ينزلق مع نننشى بن عامو وقد عرف أن كثيرا من المصريين يمرون ببلاده فتسمع منهم أخبار الوادى حتى انتشرت اللغه المصرية هناك . لذلك فقد تحول فأطنب فى مدح الملك عسى أن يبلغه ذلك فيعفو عنـــه وكأنما كان يحاول أن يلعب دورا فى السياسة الخارجيه لمصلحة فرعون استرضاء له فإذا هو يطنب فى الدعاية لفرعون والحديث عن قوته وإذا هو يغرى الشيخ نننشى بن عامو باظهار الود له .

كنت استضيف كل من يمر بى فأقدم الماء إلى الظمآن واهدى الضال فارشده إلى الطريق ، واحيط بالحماية كل من يتعرض للنهب . . . ثم كان أن جعلنى أمير رتنو قائداً لجيشه أعواما طوالا فهزمت كل بلد سرت إليه ، فما كان أروع ما تركت من أثر فى فؤاد الأمير الذى أحبنى وأدرك مقدار شجاعتى فأحلنى على رأس بنيه . . .

ولكن عملاقا من أهل رتنو أقبل على مخيمى يوما متحديا وكان بطلا مغوارا لا نظير له هناك ، وكان قد أنزل الهزيمة بكل بلد أغار عليه . . . جاءنى فقال إنه يود نزالى ، وفى ظنه أنه قادر على أن يقضى علىّ ، وقد تآمر على استلاب أغنامى مع قبيلته . . . وجاءنى الأمير مستشيرا ؛ فأجبته بأنى لا أعرف الرجل ولا كانت بينى وبينه صلة ما، ولم أطأ مخيمه ولا اقتحمت عليه بابه أو تخطيت حائطه ، ولكنه الحسد الذى أوغر صدره . . . وهب أن فحلا أراد قتال فحل آخر ، أتراه يولى ظهره أمام قرين له يكافئه فى كل شىء!؟ إذا كان قلبه يحثه على القتال فليعلن مايريد ، اليس الله بعالم ماقدر فكيف لنا نحن أن نعرف

وما أن أقبل الليل ، حتى شددت قوسى وأعددت سهامى وشحذت خنجرى ودفعته فى غمده وصقلت أسلحتى . . . فلما لاح النهار أقبلت رتنو كلها ـ وقد أثارت قبائلها الأنباء وجمعت الناس مما جاورها من البلاد ـ وأقبل غريمى علىّ وأنا منتصب فى ثبات فتقدمت منه والأفئدة كلها تضطرم من أجلى . . . كان النساء وأوزاجهن يهتفون ... أما من شجاع يقاتل معه . ويرفع عدوى فأسه وحزمة من سهام طفق يقذفنى بها ، فتركته حتى استنفد أسلحته واحداً واحداً ، وأنا أتجنب سهامه فتمر طائشة بى . . . فلما نفد ما معه

اقترب كل منا من غريمة . . . وكان يظن أنه يصيبنى فهجم علىّ ، ولكنى قذفته بسهم استقر فى عنقه ، فأرسل صيحة عظيمة ثم انكب على وجهه فأجهزت عليـــه بفأسه ، ثم أطلقت صيحتى وأنا على ظهره ، فاذا الأسيويون من أتباعه جميعا يتأوهون . . ، فحمدت منتو[1] على حين انخطر شعبه فى البكاء عليه ، فيضمنى الأمير ننشى بن عامو بين ذراعيه . ثم تحولت فاستوليت على أملاك عدوى، فازددت ثروة على ما كان لى من ثروة لا تعد وأغنام لا تحصى .

أصبحت غنيا بما عندى من عبيد وما لى من بيت فخم ومكانة رفيعة . . لقد فعل ربى ما فعل رحمة بمن أضله الهوى ففر إلى بلد غريب . وإن يوم النصر هذا إنما هو إيذان برضوان ربى علىّ ! . لقد كنت بالأمس لاجئا ولكنى أجد اليوم من ينتصر لى . كنت هاربا يبيت على الطوى ويبرح به الألم والجوع ، والآن يطعم الجار من زادى . وكنت أهيم بعيدا عن وطنى فى العراء ولكنى أملك اليوم الأثواب الكثيرة والملابس البيضاء ، كنت حائرا مضطرا إلى الجرى لا أجد من أرسله ، أما اليوم فأنا أملك جموع العبيد، وهذه دارى أنيقة ورحابى واسعة وقد ارتفع ذكرى إلى مسامع القدر . يا رب ، يا من قدر على ذلك الفرار ، كن رحيما بى وأعدنى إلى بلادى . . هلا قدرت لى رؤية البقعة التى يحن قلبى للعيش فيها ؟ أمن شىء أحب لدى أو أعظم عندى من أن يدفن جسدى فى الأرض التى ولد فيها ؟ ارحمنى يا رب .

هل لملك مصر أن يكون رحيما بى فأعيش فى ظلال كرمه ، وأن يأذن لى برعاية شئون سيدة البلاد التى تسكن قصره وأسمع أوامر بنيها . لقد حلت الشيخوخة واعترانى الوهن وثقلت عيناى وضعف ساعدى وناءت قدماى بحملى وأرهق قلبى وحانت ساعة الوداع . . . .

---

(١) إله الحرب عند المصريين

فلما خوطب جلالة ملك الشمال والجنوب بخبر كارع فى حالى . أسرع بالكتابة إلىّ وبعث لى بالهدايا مما يمنح لأفراد الحاشية فملأ ذلك قلب خادمه سانوهى فرحا :

نص الأمر الذى حمل إلى الخادم المتواضع بعوته الى مصر من حورس ملك الشمال والجنوب ... أمر ملكى للسمير سانوهى ، أنظر لقد صدر هذا الأمر لتعلم ما هو آت : إنك إنما رحلت بوازع من قلبك لك ... ولكنه لم يكن فى قلبى ضدك . إن الملكة وهى سماؤك فى القصر باقية على الخير متوج رأسها بملك الأرض وأبناؤها يشاركون فى الحكم . فهيا عد الى مصر وكن واحدا من الحاشية . لقد خطوت إلى الشيخوخة . ففكر فى الموت والانتقال إلى حرمة الموتى . ولقد أمرت فأعدت لك الزيوت والأكفان ولسوف يعد لك يوم الدفن موكب كبير إلى القبر . . .

وبلغنى هذا الأمر وقد كنت واقفاً بين أقاربى من أهل القبيلة ، فلما قرىء على خررت ساجدا ثم قبضت قبضة من تراب فحثوتها على رأسى ، ثم اندفعت فى الحى حول خيامى وأنا أصرخ فرحا .

نص الاعتراف بوصول هذا الأمر .

سلام طيب عليك . وليقع كل ما تشرق عليه الشمس تحت سلطانك [(١)]
إن هذا الفرار لم يكن مدبرا . كأنه كان حلما ، كرجل من الدلتا رأى نفسه فى فيله . . .

وأذن لى بالبقاء يوما واحدا فى أرض « ياريثما » أوصى بأملاكى إلى أولادى فأقمت أكبر أبنائى شيخا على الحى ، وانتقلت قبيلتى وأملاكى كلها إلى حوزته . ثم توجه ذلك الخادم (سانوهى) إلى الجنوب فسلكت طريق حورس ، وما أن بلغت منطقة المناقع حتى أوفد قائدها رسولا إلى

(١) يذكرنا بقول هارون الرشيد وقد نظر إلى سحابة فى السماء «إذهبى حيث شئت يأتى خراجك » كناية عن اتساع سلطانه ، كما يذكرنا بما كانت توصف به الامبراطورية البريطانية بقولهم «لا تغرب عنها الشمس »

القصر يعلن وصولى ، فاذا جلالة الملك يرسل ناظرا زراعيا من الضياع الملكية تتبعه سفينة محملة بالهدايا الملكية للبدو الذين رافقونى . ثم استأنفت رحلتى . حتى بلغت مدينة اثيث تاوى (العاصمة) .

فلما أن أضاءت الأرض لفجر اليوم التالى جاء رجل يستدعينى ثم أقبل عشرة من الرجال ذهبوا بى إلى القصر فصافحت الأرض بجبهتى . واستقبلنى أبناء الملك عند الباب ، وأرشدنى رفاق الملك ... إلى طريق القاعة (الملكية) فوجدت جلالته على عرش من ذهب فانبطحت على بطنى وغشى علىّ ، وكان هذا الرب يحدثنى متلطفا ولكنى كنت كمن غشيه الظلام ... ثم قال جلالته لواحد من سماره ، دعه ينهض ليتحدث الىّ ثم قال جلالته لى : ها قد عدت بعد أن ذرعت البلاد الأجنبية فى فرارك . . . لا تقم على الصمت ، الا تتحدث ؟! وكنت أخشى العقاب فأجبت جواب الخائف : « . . . وددت لو استطعت الجواب . . . هأنذا بين يديك . وحياتى لك ولتفعل . . ماتشاء ثم أمر بدخول أبناء الملك وتحدث الملك الى الزوجة الملكية : « انظرى ها هو ذا سانوهى وقد عاد أسيويا كأنه بدوى خالص . فندت صيحة عالية وصاح الأبناء الملكيون : حقاً كأنه ليس هو يامولانا . . . دعنا نحتفل بهذا الشيخ ابن الشمال ذلك البدوى الذى ولد فى مصر ، إنه ما حمل نفسه على الفرار إلا خوفاً منك ، هجر وطنه لأنه امتلأ منك رعباً ، أيمكن للوجه الذى تطلع إلى محياك أن يعتريه الشحوب . . فقال جلالته : لا خوف عليه ولا هو يحزن . . . ولسوف يكون سميراً لى بين الأشراف . . . إذهبوا به إلى قاعة الصباح [1] لتكونوا فى خدمته . . .

ثم اسكنت داراً لأحد أبناء الملك يحوى أثاثاً فخماً وحماماً أنيقا وزخارف مقدسة . . . وأثواباً من كتان ، وعطوراً من المر والزيت الثمين مما يخص الملك

(١) أى قاعة الزينة .

والنبلاء وفيه الخدم قائمين بأعمالهم، وأزيلت عن أعضائى آثار السنين، ومشط شعرى والتى التفث إلى الصحراء والملابس لجوابى الرمال، ثم اكتسيت بأثواب الكتان الجميل ودلكت بأحسن الزيت ثم رقدت فى سرير وتركت الرمال لمن يعيش فيها وزيت الخشب لمن يدلك نفسه به.

ثم منحت داراً وسط الحدائق... وشيد لى هرم من حجر بين سائر الأهرام... وإنى لا حظى الآن بما يناله سمير الملك من عطف، وسيظل هذا النعيم حتى يأتى يوم الهبوط إلى الغرب فى مدينة الأموات.

وبعد فهذه رحلة نفسية فى قصة، تصور فى روعة وجمال ما اختلف على بطلها من المشاعر والأحاسيس، فهى تصور الصدمة التى تلقاها ساعة بلغته وفاة الملك وما توقع من المحنة والشر، وتصف خوفه وهلعه ثم ما لقيه من الأهوال والخطوب حتى قال لنفسه «ذلك طعم الموت».

حتى إذا بلغ رتنو (سوريا) إذا به يستخلف فى الأرض ويبدل من بعد خوفه أمنا، فلا يلقى من حاكمها إلا خيراً، فيتبدل شقاؤه نعيما وعسره يسرا وإذا هو يتذاكر ذلك فى أسلوب مؤثر جميل. والقصة تصور أثناء ذلك حياة البدو كأحسن ما يكون التصوير وتجلو نظام القبيلة ومجتمعها وما قد يتعرض له البدوى من لدن جيرانه من العدوان والغارة حين تورط سانوهى فى مبارزة فرضت عليه ولم يكن يريدها.

ولكن النعيم الذى عاش فيه الرجل لم يكن ليلهيه عن وطنه والشوق لرؤيته والتطلع لأن يستقر جسده فيه بعد موته، وكان ذلك التعبير المؤثر الذى يصور لنا الحنين أحسن تصوير ويصور لنا اعزاز الوطن كيف يكون وكيف يحمل الرجل على ترك قبيلته وبنيه وأمواله ليعود إلى مسقط رأسه. وتصور لنا ذلك الفرح الذى أخرجه عن طوره حين أذن له الملك بالعودة بعد أن عفا عنه، وتنتهى القصة بالخاتمة السعيدة وهى العودة إلى الوطن والاستقرار فيه حتى يدفن فى أرضه الطيبة.

قصة البحار الغريق

وهذه قصة أخرى لعلها مختصر لقصة طويلة تداولها الناس من قبل ، ذلك أن أسلوبها وتواصل جملها قد أوحيا لبعض العلماء أنها نظمت شعراً بعد أن كتبت نثرا .

وتجرى القصة على لسان أحد الأتباع ، يتحدث بها إلى أمير عاد فاشلا من رحلة كلفه بها الملك ، وكان لذلك كئيب النفس ، خائفا من المثول بين يدى مليكه وليس فى جعبته إلا أنباء الفشل ، فيعمد تابعة إلى تسليته والتسرية عنه :

قال التابع الماهر : سلم قلبك أيها الأمير، أنظر : ها نحن قد بلغنا الوطن فأخذت المطارقة ، وثبتت المراسى ، ووضعت الحبال على الأرض ، وأدينا صلوات الشكر والحمد لله، على حين طفق كل رجل يحتضن زميله ، لقد عاد بحارتنا سالمين ولم نخسر من جنودنا أحد . . . أنظر ها قد عدنا فى سلام وها هى أرضنا قد بلغناها ، أنصت إلى أيها الأمير . . . خاطب الملك وقلبك معك وأجب فى غير خوف فان منطق الرجل ينقذه وحديثه يكف عنه (غضب) الوجوه وافعل ما يوحيه فؤادك ، إن حديثى يرهقك ولكن دعنى أقصص عليك قصة مشابهة حدثت لى أنا نفسى حينما رحلت إلى المناجم الملكية فنزلت فى الأخضر العظيم فى سفينة بلغت مائة وعشرين ذراعا فى طولها وأربعين ذراعا فى عرضها وكان فيها مائة وعشرون بحارا من أمهر البحارة فى مصر . . . قلوبهم أقوى من (قلوب) الأسود . وكانوا يتكهنون بالزوبعة قبل أن تقبل وبالعاصفة قبل أن تحدث .

وهبت العاصفة . . . وإذا هى تقذف بأمواج متتابعة بلغت ثمانية أذرع

فى إرتفاعها، فتحطم الشراع الذى حملته الأمواج الى ، أما السفينة فقد هلكت ولم ينج واحد ممن كان فيها ، ثم قذفت بى الأمواج إلى جزيرة من جزر البحر حيث أنفقت هناك ثلاثة أيام وحيدا لا رفيق لى إلا قلبى ، راقدا فى غابة لا احتضن إلا الفراغ. ثم كان أن بسطت قدمى بحثا عن شىء أضعه فى فى، فوجدت هناك تينا وعنبا وكل طيب ممتاز من الخضر، ووجدت فواكه وجميزا وقثاء كأنها ممدودة للطعام، ووجدت سمكا وطيرا هناك، مامن شىء إلا كان فيها. فكان أن طعمت من ذلك حتى شبعت . . . ثم أمسكت زنادا فأوقدت نارا وقدمت للآلهة قرابين الحريق .

وإنى لكذلك، إذا بى أسمع كأن رعدا يقصف، فظننته أمواج البحر، ولكن الأشجار قرقعت والأرض زلزلت فلما كشفت عن وجهى ، وجدت أفعوانا مقبلا ، كان طوله ثلاثين ذراعا ، أما أثره (على الأرض) فكان يزيد فى عرضه على ذراعين . وكان جسده مموها بالذهب وحاجباه من اللازورد الخالص . كان رائعا جدا . وفتح فمه لى وأنا أمامه منبطح على بطنى فقال لى : من جاء بك ، من جاء بك أيها الرفيق ، من جاء بك؟ لئن توانيت فى اجابتى عمن جاء بك فلسوف أجعلك تعرف من أنت ، بأن تكون رمادا وتصبح كأن لم تكن . كان يحدثنى وأنا لا (أكاد) اسمع وكنت فى حضرته وأنا لا أكاد أدرى بنفسى من الرعب ، فوضعنى فى فمه وحملنى إلى مسكنه ثم حطنى ولم يمسسنى وكنت بخير ، ثم فتح لى فمه وقال لى : من جاء بك ، من جاء بك إلى هذه الجزيرة ، التى تحدق بها المياه من كل جانب ، فأجبته وذراعاى مقبوضتان أمامه قلت له : حدث أنى ذهبت إلى أرض المناجم فى بعثة للملك فى سفينة كانت مائة وعشرين ذراعا فى الطول وأربعين ذراعا فى العرض ، وفيها مائة وعشرون بحارا من أحسن بحارة مصر . . . وكانت قلوبهم أقوى من (قلوب) الأسود ، وكانوا يتكهنون بالزوبعة قبل أن تقبل

والعاصفة قبل أن تحدث ، وكان كل فرد منهم أقوى وأشد ساعدا من أخيه ولكن أنظر لقد انفجرت العاصفة ونحن فى البحر قبل أن نصل إلى الأرض وإذا بها تقذف أمواجا متتابعة من ثمانية أذرع ، وتحطم الشراع الذى حمل الى ، أما السفينة فقد هلكت ولم ينج واحد ممن كان فيها الاى ، انظر وها أنذا فى حضرتك أنا الذى قذف إلى هذه الجزيرة على أمواج البحر . فقال لى : لا تخف ، لا تخف أيها الرفيق ؛ لا تكدر وجهك . . . انظر لقد قدر الله لك أن تعيش لجاء بك إلى جزيرة الروح هذه . . . انها حافلة بكل طيب انظر ، لسوف تنفق شهرا من وراء شهر حتى تكمل أربعة أشهر فى هذه الجزيرة ، ثم تقبل سفينة من وطنك وفيها بحارة تعرفهم فتذهب معهم إلى الوطن حيث تموت فى بلدك .

ما أمتع أن يروى المرء ما ذاق بعد أن ينكشف الخطب ، لسوف أروى لك كذلك ما حدث لى فى هذه الجزيرة : لقد كنت فيها مع اخوتى ، وابنائى وكانت عدتنا سبعة وسبعين ثعبانا ، ولن أذكر لك طفلة صغيرة جاءتنى بعد دعوات . وإذا بنجم يهوى فيحترقون به ، وحدث أننى لم أكن من بين الهالكين لأنى لم أكن معهم ولكننى (كدت) أموت من أجلهم حين وجدتهم كومة واحدة من رماد ، وإن كنت شجاعا تحكمت فى قلبك[1] .

لسوف تملأ أحضانك بأبنائك وتقبل زوجتك وترى بيتك ؛ وأجمل من كل شىء أنك سوف تبلغ وطنك وتعيش هناك مع أطفالك وفى وسط إخوتك.

وبينما كنت منبطحا على بطنى قبلت الأرض بين يديه ثم قلت له : لسوف أحدث بقوتك إلى الملك وأحيطه علما بعظمتك وأروى ما حدث لى مما وقع عليه بصرى بإرادتك ، وسوف يلهج بالثناء عليك فى المدينة أمام موظفى البلاد

---

(١) لعل هذه الجملة من الحكم التى كانت تجرى مجرى الأمثال وهى بأسلوبنا الحديث « الشجاع من تحكم فى قلبه » وتذكرنا بقول رسول الله ﷺ « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب »

كلها ، وأضحى بالثيران قربانا لك وألوى أعناق الأوز من أجلك ، وسوف أوجه إليك السفن المشحونة بالبخور والمر وكل شيء طيب من مصر مما يقدم عادة إلى إله يحب العباد، فى بلاد بعيدة لا يعرفها الناس . فضحك منى ومما قلت . . . وقال إنك لا تملك الكثير من البخور ولو أصبحت مالكا لبخور المعبد كله ، ولكننى أنا حاكم پونت والبخور ملكى — أما هذا البخور الذى تتحدث عن إحضاره فهو قوام ما فى الجزيرة ، ولسوف يحدث عندما تغادر هذا المكان أنك لن ترى هذه الجزيرة مرة أخرى إذ تتحول إلى أمواج . .

وتقبل السفينة كما تنبأ من قبل ،فذهبت فاعتليت شجرة عالية فتعرفت على من كان فيها فقصدت اليه لابلغه بمجيئها فوجدته عالما بذلك ، ثم قال لى اذهب آمنا ، اذهب آمنا أيها الرفيق الطيب ، اجعل اسمى طيبا فى بلدك ، ذلك حق عليك . . . ثم منحنى أحمالا من البخور والمر، والتوابل والكحل وذيول الزراف ، وأكواما هائلة من الصموغ وأسنان الفيل ، والكلاب والقردة والنسانيس ، وكل شيء جميل ، فحملت هذا كله الى السفينة ثم انبطحت بعد ذلك على بطنى لأشكره فقال لى : أنظر ، لسوف تبلغ وطنك فى شهرين فتأخذ أطفالك فى أحضانك وتسعد فى بيتك .

ثم نزلت إلى الشاطىء قرب السفينة فناديت بحارتها ثم قدمت الحمد على الشاطىء لسيد هذه الجزيرة وكذلك من كان فيها ، ثم كان أن أقلعنا إلى الشمال قاصدين قصر الملك فبلغنا الوطن فى شهرين كما قال تماما

ثم دخلت على الملك فقدمت إليه هذه الهدايا . . . فشكرنى أمام موظفى البلاد كلها ورقيت فأصبحت تابع الملك وكوفئت بعبيده .

انظر إلى بعد أن بلغت الأرض وبعد أن لاقيت الخطوب ، أنصت إلى أيها الأمير ، أنصت فان من الخير الإنصات . فقال لى : لا تتكلف المهارة أيها الصديق ، البيت كمن يقدم الماء للاوزة فى الفجر ليذبحها فى الصباح .

انتهت من المبدأ إلى المنتهى كما وجدت فى الكتب ، كتبها الكاتب الماهرة اصابعه ابن أمينى أمينا الحى السعيد .

أما هذه القصة فإن لها اصداء قوية واضحة فى الأدب الأغريق والعربى جميعاً ، فنى أوديسية الأغريق ، نقرأ عن يوليسيس وقد ركب السفينة فكث فى البحر حيث أثار زيوس العاصفة فتحطمت سفينته كما تحطمت سفينة المصرى ، فكان أن ركب قطعة من خشب ظل يقودها كما يقود الجواد ، وقد طفق أثناء ذلك يناقش قلبه كما كان قلب المصرى رفيقه الوحيد. ثم إذا بموجة عاتية تندفع به إلى الشاطىء حيث استطاع كذلك بعناية الآلهة أن يلتجىء إلى غابة حيث ينام هناك كما فعل المصرى ثم يصف يوليسيس ما فى الجزيرة فإذا هى كجزيرة المصرى ذات نباتات رائعة وفاكهة شهية. وكذلك يفرح يوليسيس بقرب عودته إلى وطنه فيقدم الشكر لسادة الجزيرة كما فعل المصرى ومن العجيب أن يكون مصير الجزيرتين فى القصتين واحداً فتنتهيان بالفناء فتتحول جزيرة المصرى إلى أمواج وتختفى فى البحر كما تدمر جزيرة شيرى التى نزل بها يوليسيس بعد رحيله عنها. ومع ذلك فإن كثيراً من تفاصيل القصة المصرية قد وجدت سبيلها إلى مواضع متفرقه من الأوديسية ، فقد أوقد رفاق يوليسيس النار ليقدموا القرابين للآلهة على طريقة المصرى كما أن يوليسيس قد سمع دويا هائلا حين أقبل الوحش عليه .

ومهما يكن من شىء ، فلم يقنع الأدب الفرعونى بهذا التأثير العميق فى الأدب الأغريق ، ولكنك تجد له كذلك أصداء قوية تتردد فى الأدب العربى ، وانا لنقرأ تلك القصة المصرية القديمة فنحس كأنا نعيد قصة السندباد الذى يتحدث عن نفسه كالمصرى فيقول : « . . فغرقت فى البحر مع جملة من غرق ولكن الله تعالى أنقذنى ونجانى ورزقنى بقطعة من خشب كبيرة فمسكتها وركبتها . . . وقد ساعدنى الريح والأمواج إلى أن رست بى

تحت جزيرة عالية ، وقد ارتميت فى الجزيرة . . . وانتبهت . . . وكان فى الجزيرة فواكه كثيرة . . . فصرت آكل من تلك الفواكه ، ولم أزل على هذه الحال . . . فلاح لى شبح . . . فظننت أنه وحش . . . » وتمضى قصة السندباد بما فيها من تفاصيل كثيرة لا تخفى عنا صلب القصة فيروى أنه قابل ملك الجزيرة الذى يقوم مقام الملك الثعبان فى قصة المصرى فيحسن استقباله ثم يقول « . . . إلى أن وقفت يوما من الأيام على جانب البحر وإذا بمركب قد أقبلت وفيها تجار كثيرة . . . فعرفونى . . . وأعلمت الملك . . . ووهب لى شيئاً كثيراً . . . ولما أراد تجار المركب السفر . . . دخلت عند الملك وشكرته على فضله واحسانه ثم استأذنته فى السفر إلى بلادى وأهلى فودعنى وأعطانى شيئاً كثيراً عند سفرى من متاع تلك المدينة ونزلت المركب وسافرنا باذن الله »

وبعد فهذه هى قصة السندباد نقلناها بالفاظها بعد تخليصها من كثير من التفاصيل التى لا تنال من صلب القصة شيئاً ، أترانا فى حاجة إلى تعليق لعقد الشبه بينهما وهما تكادان أن تتفقا فى الجمل والألفاظ ، ومهما يكن من شىء فللقارىء أن ينظر فى الليلة السادسة والأربعين بعد الأربعمائة من ألف ليلة وليلة وسيقرأ قصة حاسب كريم الدين ، وسيرى أن هذه الليالى قد استلهمت من قصة البحار الغريق قصة أخرى عن جزيرة يسكنها الثعابين يزورها حاسب ، فتستقبله بالترحيب والتكريم وتحدثه بما وقع لها من أحداث كما وقع المصرى .

ويبرز فى القصة المصرية عاطفة حب الوطن والحرص على العودة إليه وحب الأسرة والولد وقد تكرر ذلك فى غير موضع من القصة وذلك فضلا عما تردد فيها من التشبيه والكناية والأمثال .



اخناتون

الملك الفيلسوف والأديب الذى صاغ الأناشيد لربه آتون
فكانت من اروع ماعرف من أداب الدولة الحديثة

عصر الانتقال الثانى ومطالع الدولة الحديثة

حرب التحرير (لوح كارنارفون)

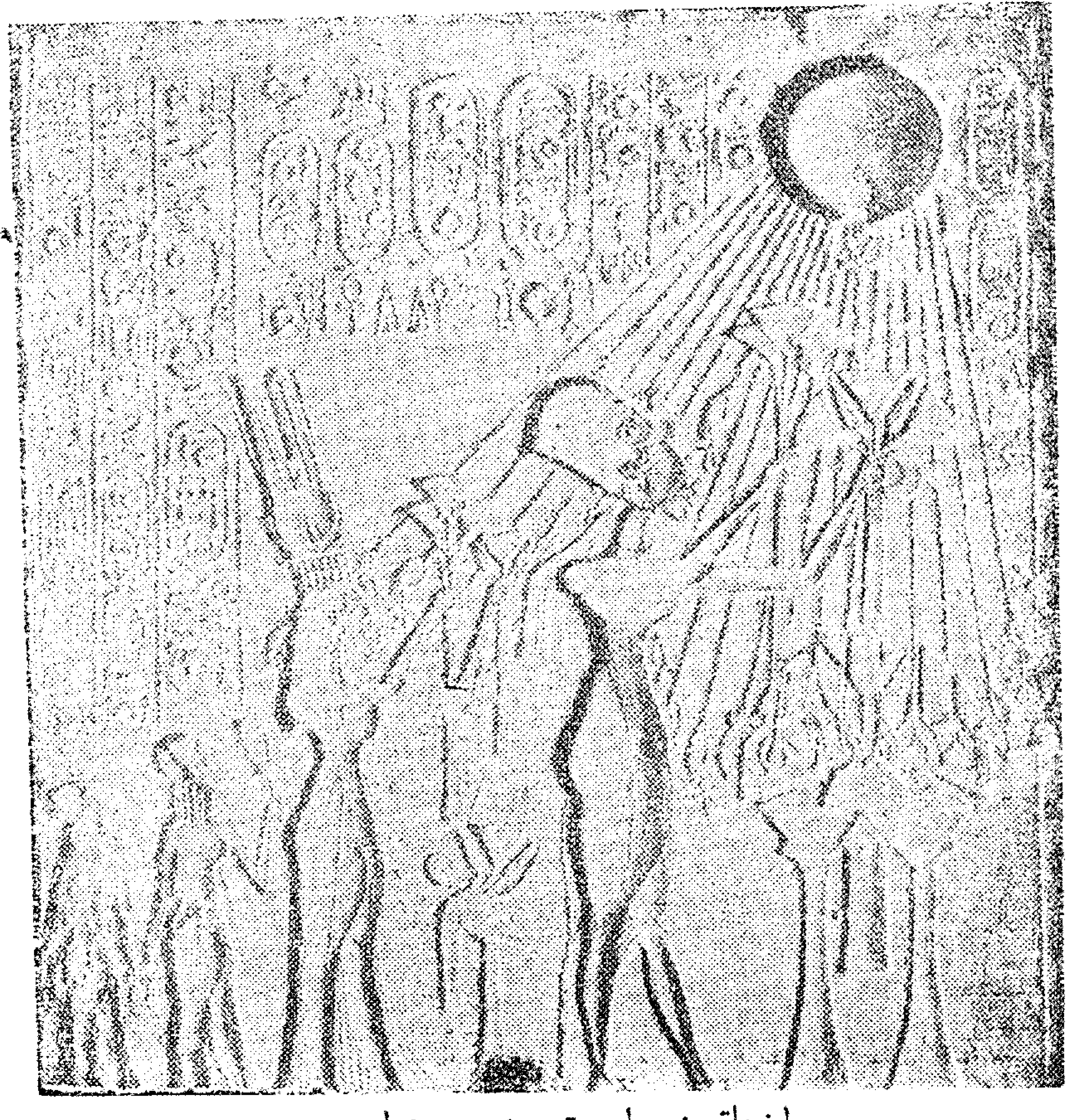
هب المصريون بقيادة ملوك طيبة لاجلاء الهكسوس عن أوطانهم، وكان أول أبطال الاستقلال سقننرع الذى استشهد حومة الوغى، ثم أعقبه كاموسى الذى حمل رايه الجهاد من بعده وروى لنا ذلك بقوله :

لقد هبطت النيل لطرد الهكسوس بأمر آمون ذى الرأى السديد، ولقد تقدمنى جيشى القوى كأنه جذوة من نار، وكانت طلائع الجيش من فصائل المازوى تتقدمه للكشف عن الأسيويين وتدمير مواقعهم، وكان الدهن والنبيذ يتدفق علينا من الشرق والغرب، وقد فاض على الجيش الطعام من كل مكان [1]، وقد وجهت فصيلة قوية من المازوى إلى الأمام على حين توليت بنفسى حصار تبتى بن تيتى فى نفروسى، فقد كرهت أن أفلته، ففصلت بينه وبين الأسيويين ثم قضيت الليل على سفينتى منشرح الفؤاد، فلما أسفر النهار انقضت عليه كالصقر فدحرته وهو يعطر فمه [2] فدمرت أسواره وقتلت قومه وسقت زوجه إلى ضفة النهر، وكان جنودى كالسباع فى اقتسام الغنائم من عبيد وقطعان، ودهن وعسل فاقتسموا بقلوب منشرحة ما كان للعدو.

---

(١) تلك وطنية تجلت فى سخاء المصريين بتبرعهم للجيش الذى يقاتل فى سبيل تحرير وطنهم من الغاصبين.

(٢) كناية عن الافطار.



اخناتون واسرته يتعبدون لربهم
قرص الشمس الذى يرمز للاله الواحد ؛ رتلت له الأناشيد التى كانت من
عيون الأدب المصرى القديم

الدولة الحديثة

أناشيد أخناتون

شروقك جميل فى أفق السماء
يا أتون يا حى يا مبدىء الحياة
إذا طلعت فى الأفق الشرقى
ملأت الأرض كلها بجمالك

أنت جميل عظيم ، تتلألأ عالياً فوق كل البلاد
أنت رع الذى تأخذهم أسرى جميعاً
وقد قيدتهم بحبك
إنك رفيع وأشعتك فى الأرض.

إذا ما غربت فى الأفق الغربى من السماء
صارت الأرض فى ظلمة كأنها موات
فيخرج كل سبع من عرينه
وكل الأفاعى اللادغة
وإذا الكون فى سكون
لأن خالقها قد ذهب يستريح فى أفقه

تضىء الأرض إذا أشرقت فى الأفق
فتكشف الظلام عندما ترسل أشعتك

تجعل ظلمة فيصير
ليل فيه يدب كل حيوان
الوعر ، الأشبال تزمجر
لتخطف
مزامير ١٠٤ (٢٠-٢١).

تشرق الشمس وفى
مأويها تربض

وإذا الأرضان (مصر) فى حبور كل يوم
فيصحوا الناس وينهضون على أقدامهم
وفى العالم كله يؤدون أعمالهم

تسير الفلك صاعدة هابطة
وأسماك النهار تقفز أمامك
لأن أشعتك تخترق البحر الأخضر العظيم
يا خالق الجرثومة فى المرأة
وصانع النطفة فى الرجل
ومعطى الحياة للوليد فى جسد أمه

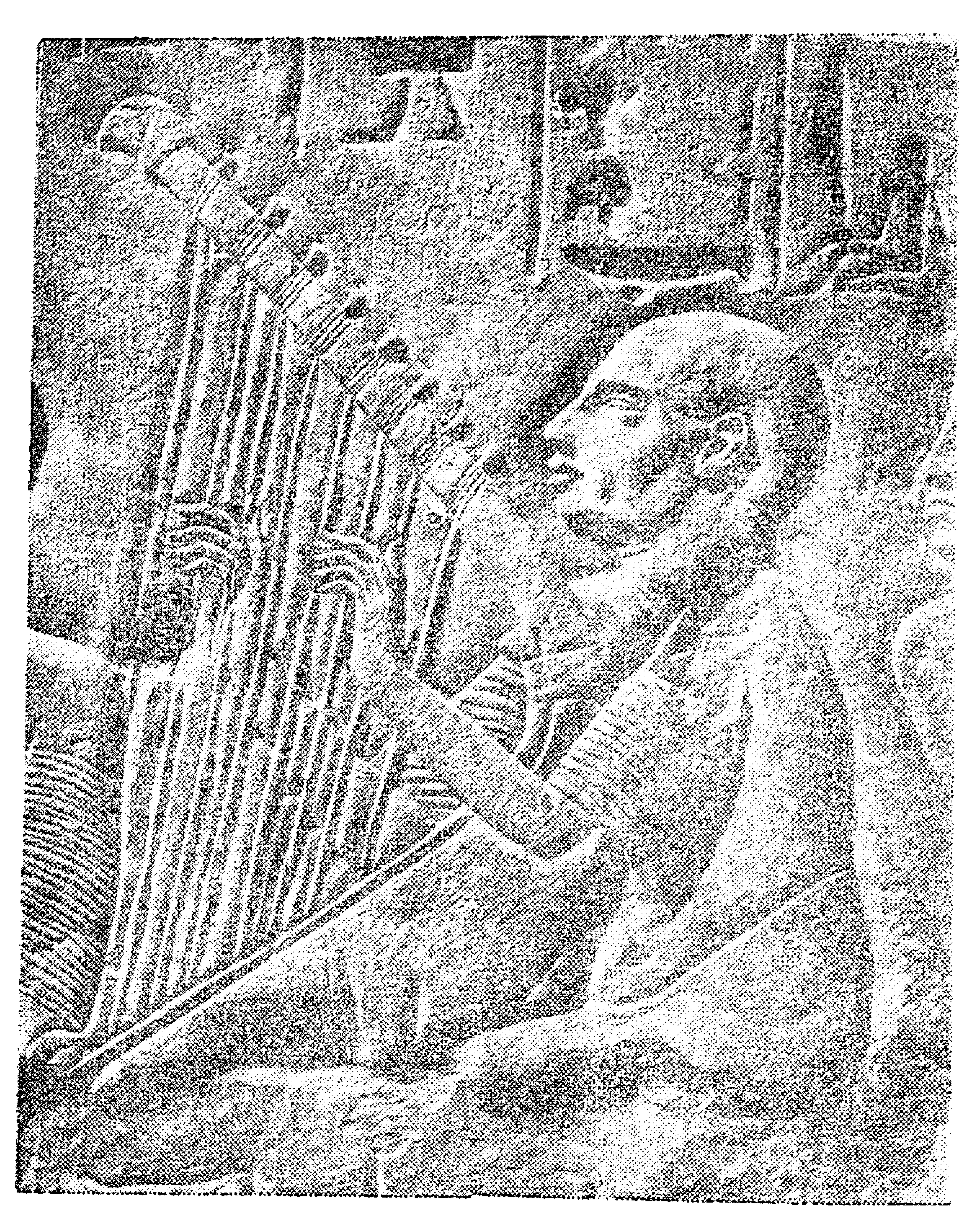
ما أعظم أعمالك
إنها محجوبة عن ناظر الإنسان
يا خالق الأرض كيف شئت
والإنسان والأنعام كبيرا وصغيرا
وما يطير بجناحيه
وسوريا وكوش وأرض مصر

إن أشعتك تغذو كل بستان
إذا أشرقت عاش
وهو ينمو بك

الانسان يخرج إلى عمله
وإلى شغله إلى المساء
مزامير ١٠٤ (٢٢-٢٣)

هذا البحر الكبير
الواسع الأطراف هناك
دبابات بلا عدد، صغار
حيوان مع كبار، هناك
تجرى السفن
مزامير ١٠٤ (٢٥-٢٦)

ما أعظم أعمالك
يا رب، كلها بحكمة
صنعت، ملآنة الأرض
من غناك
مزامير ١٠٤ (٢٤)



العازف الضرير
يعزف للمنشدين والمغنين

الغزل

أغاني الفتاة

أخي ما أحلى الذهاب إلى البحيرة
والاغتسال على مرأى منك
لترى جمالي في ثوبي الكتاني الرقيق
حينما يبتل ويلتصق بجسدي
سأنزل معك إلى الماء
ثم أخرج إليك بسمكة حمراء جميلة
على أصابعي ترتد
تعالى وأنظر إليّ

أغاني الفتى

أني أرى أختي مقبلة
وقلبي يفرح
وذراعاي ينفتحان لضمها
وقلبي يفرح بها في موضعه
عندما تقبل الفتاة عليّ

إن ضممتها إليّ وقد فتحت ذراعيها

كنت كمن كان في بونت (بلاد العطور)
وإن قبلتها وقد فتحت شفتيها
كنت سعيداً بغير خمر

التعاليم

من تعاليم أمنموبي

أمل اذنيك لتسمع كلامى
ووجه قلبك لمعرفتها
لأنه مفيد إن وضعتها
فى قلبك[١]

لا تنقل تخم الحقول
ولا تكن جشعا نحو
ذراع من أرض
ولاتعدُ على حدود أرملة

لا تتعب نفسك طلباً للمزيد
. . . ولئن جاءك المال مسروقا
فلن يبيت معك سواد الليل

سفر الأمثال

أمل أذنك واسمع كلام الحكماء
ووجه قلبك إلى معرفتى
لأنه حسن إن حفظتها
فى جوفك (٢٢ : ١٧ - ١٨)

لاتنقل التخم القديم[٢]
ولا تدخل حقول الأيتام

(٢٣ : ١٠)

لاتتعب لكى تصير غنيا
كفَّ عن فطنتك ، هل
تطير عينك نحوه وليس هو

(١) كان لفظ القلب فى اللغة المصرية يعنى كذلك الجوف عما يقرب النصين تقريبا مدهشا
(٢) يقول برستد فى « فجر الضمير » إنه قبل إنكشاف النقاب عن حكم امينموبى هذه أبدى نقاد « العهد القديم » أن كلمة « قديم » التى تشبه فى اللغة العبرانية كلمة أرملة هى بلا شك غلطة فى النسخة الخطية صحتها أرملة وقد أيد اكتشاف النص المصرى ذلك .

فإذا أتى الصباح لم يعد فى بيتك لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالاوز يطير نحو السماء	لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء (٢٣ : ٤ - ٥)
لا تستصحب رجلا غضوبا ولا تلحن فى محادثته	لا تستصحب غضوبا ومع رجل ساخط لا تجيء (٢٢ : ٢٤)
الكاتب الماهر فى عمله يجد نفسه أهلا لأن يكون من رجال البلاط	أرأيت رجلا مجتهداً فى عمله أمام الملوك يقف (٢٢ : ٢٩)
تبصر لنفسك فى هذه الفصول الثلاثين حتى تكون مسرة وتعليما	ألم أكتب لك ثلاثين[1] فصلا من جهة مؤامرة ومعرفة (٢٢ : ٢٠)

(١) يقول برستد إن أحد مؤلنى العهد القديم قد كان ينقل بغير تحفظ من ترجمة عبرانية لحكم امنموبى، فأورد كلمة ثلاثين مع أنه لم ينقل ثلاثين فصلا بأكملها فى سفر الأمثال

دعاء رمسيس فى المحنة

فى معركة قادش وجد رمسيس نفسه محصوراً بين الأعداء ينوشونه من كل جانب فإذا هو يناجى ربه ويستغيث بذلك الدعاء :

ما هذا يا أبت آمون ؟ !
أحقا يتخلى الأب عن ولده
ألم أذهب أو أقف بأمرك
ألا ما أعظم سيد طيبة
إنه أعظم من أن يقترب منه الأعداء
ألم أجعل من أجلك الآثار الكثيرة
وأملأ معبدك بأسراى
أمن شىء طيب إلا أديته فى محرابك
إن الشقاء واقع بمن يعصى أوامرك
والسعد نازل بمن يفهمك
إنى أدعوك
وأنا وسط أعداء لا أعرفهم
لقد اتحدت البلاد كلها علىَّ
وهجرنى جندى
ولم يلتفت إلىَّ واحد من فرسانى
ولو أنى دعوتهم لم يسمعوا
ولكنى أنادى .
فأجد أمون أعزَّ لى من مليون راجل
ومئات الألوف من المركبات
ومائة ألف رجل من الأخوة والبنين
إن جهد الجمهرة من الناس عدم



معركة قادش

موقعة كان لها في الأدب المصرى نصيب

لأن آمون أعز منهم
انى إنما اتيت هنا بمشورتك
وعن مشورتك لم اخالف
إن آمون يستمع لى
ويجيبنى إذا دعوته[1]

ويبسط إلى يده
ويدعو من ورائى
إلى الأمام إلىّ الأمام
فإنى معك
إنى أبوك
ويدى معك[2]
وأنا أقرب إليك من مائة ألف من الرجال
أنا سيد النصر الذى يحب القوة

---

(١) وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان (قرآن كريم)
(٢) يد الله فوق أيديهم (قرآن كريم)

الرسائل

وصف مدينة پرعمس عاصمة رمسيس الثانى التى أنشأها فى شرق الدلتا .

الكاتب پاييس يحيى سيده الكاتب امنموپى عاش فى سعادة وصحة ، كتب هذا لتعريف سيدى .

سلام آخر لسيدى ، لقد بلغت پرعمس حبيبة آمون فوجدتها أروع ما تكون ازدهارا ، وهى عاصمة جميلة لا مثيل لها على نمط طيبة . إن رع هو الذى أنشأها بنفسه ، وهى مقام تطيب فيه الحياة .

إن حقولها مليئة بكل شىء طيب وتتدفق عليها الأطعمة كل يوم ، كما تمتلىء مياهها بالأسماك وبركها بالطيور ، وإن أجرانها مليئة بالشعير والقمح (وتكاد) تبلغ إلى السماء ، وفيها حدائق الرمان والتفاح والزيتون ، والتين من البستان ، أما النبيذ فهو أحلى من العسل ، وفيها السمك الأحمر فى القنوات

إن المرء ليسعد بالإقامة فيها . أقبل ودعنا نحتفل بأعيادها السماوية إمطالع الفصول .

إن شباب « عظيمة الانتصارات »[1] فى عيد كل يوم والزيت الطيب على رؤوسهم . وهم يقفون بأبوابهم وأيديهم مثقلة بالزهور .

(١) كناية عن المدينة .

فتـــح يافا

وهذه قصة تتناول من حروب بطل مصر المغوار تحتمس الثالث واقعة لا نعرف من أمرها إلا ما تحدثنا به .

أما بطل القصة فهو قائد حربى معروف من قواد تحتمس الثالث مازال قبره فى الأقصر حيث عثر عليه ، كما أن له خنجرا فى متحف دار مستاد ووعاء من ذهب فى متحف اللوفر كان الملك قد أهداه اليه . وما من شك فى أن تحوتى قائد تحتمس الثالث قد كان من كبار القادة الذين ذاع اسمهم وظل يتردد فى الأسماع فيما أعقب زمانه بأجيال .

على أن هذه القصة لم يحفظ منها إلا ختامها ، ولكن وقائعها الأولى واضحة نستطيع تقديرها فى غير مشقة أو عسر ، فقد كانت الحرب دائرة فى فلسطين والملك فى عاصمته لما يخرج للقتال ، وكان قائده تحوتى — بطل قصتنا — يحاصر يافا ، وظاهر أن الحصار قد شق وطال ، فكان أن رأى القائد أن يصطنع شيئا من الخدعة والحيلة فى الاستيلاء عليها ، فدعا أمير يافا إلى لقاء بينهما حيث أحسن استقباله : ثم تحدث إليه القائد المصرى قال إنه قرر الانضمام اليه والانتصار له، وزعم أنه سيلجأ إليه مع زوجته وأولاده ليعيشوا فى يافا عنده . ثم تمضى القصة :

وبعد ساعة وكانا قد سكرا قال تحوتى (لأمير يافا) إننى لاجىء اليك مع زوجتى وولدى فى مدينتك . فأمر الفرسان أن يعدوا الجياد ويزودوها بالطعام.

وكان أمير يافا قد أبدى رغبته فى رؤية صولجان الملك تحتمس وقد جاء من يحدث تحوتى بذلك كما جاء أمير يافا فقال لتحوتى : إن رغبتى هى رؤية الصولجان العظيم للملك تحتمس . وحياة الملك تحتمس إنه لمعك اليوم ، تفضل فاحضره إلى ، ففعل كما أراد وأتى بصولجان تحتمس . ثم وقف قبالته وقال « أنظر إلى يا أمير يافا ، هذا هو صولجان الملك تحتمس الأسد العبوس بن سخمت[1] ، لقد منحه أبوه آمون قوته ليهلك به الأعداء .

---

(١) اله الحرب

ثم ضرب أمير يافا على رأسه فسقط صريعاً أمامه ، وعندئذ شد وثاقه بسيور من جلد ووضع قيودا وأغلالا من نحاس فى قدميه .

ثم أمر فأحضر خمسمائة جوالق كان قد استصنعها وأمر مائتى جندى بالدخول فيها وملئت أيديهم (١) بالأصفاد والأغلال ثم أغلقت عليهم ، ثم أمر جنود شجعان بحملهم — فبلغ عددهم خمسمائة — وقيل لهم : إذا بلغتم المدينة فاطلقوا زملاءكم واقبضوا على كل الناس فى المدينة وصفدوهم بالأغلال .

وخرج رجل يقول لقائد عجلة أمير يافا : « يأمر سيدك بأن تذهب فتبلغ سيدتك : اهنأى قلبا فقد أعطانا سوتخ تحوتى وزوجته وأولاده ، أنظرى ، وها هى جزيتهم — أى المائتا جوالق بما فيها من رجال وأغلال وسار على رأسهم ليفرح قلب سيدته قائلا : « معنا تحوتى » ففتحوا أبواب المدينة المغلقة أمام الجنود وهكذا دخلوا المدينة فأطلقوا زملاءهم فقبضوا على رجال المدينة صغارا وكبارا ووضعوهم فى السلاسل والأغلال فكان أن استولت يد الملك القوية على المدينة

وفى المساء أرسل تحوتى إلى مصر مخاطباً تحتمس بقوله أبشر فقد سلمك أمون أبوك الطيب أمير يافا وكل رجاله ومدينته كذلك ، فأرسل رجالا يأخذونهم أسرى يملأون بيت أبيك أمون ملك الآلهة بالذكور والاناث من العبيد الذين سقطوا تحت قدميك .

* * *

وبعد قصة فإن هى أقدم أصول ما نسمع من قصص الحيل فى آداب الشعوب ، كقصة حصان طروادة التى اشتهرت فى الأدب اليونانى القديم وقصة الزباء فى الأدب العربى وكيف احتال قصير فدخل عليها المدينة وهم على جمال فى الجوالق مختبئون وكذلك قصة على بابا واللصوص الأربعين المشهورة واختباؤهم فى الجرار .

---

(١) يعنى أنهم زودوا بالكثير

الحق والباطل

أول هذه القصة ضائع لم يصل إلينا على البردية التى حفظتها ، ولكنا نستطيع أن ندرك من سياقها أن الباطل قد تآمر على أخيه الحق ، وذلك بأن أودع عنده سكينا طالبه بها بعد حين ، وكان الحق قد فقد سكين أخيه فلم يستطع أدءها إليه فأراد أن يعوض أخاه عنها بمثلها فلم يقبل وخاصم أخاه إلى محكمة التاسوع الآلهى مطالبا بسكينه التى أضفى عليها من الصفات مالا حد له .

« عندئذ قال الباطل للتاسوع : فليؤت بالحق ولتطمس عيناه وليجعل حارسا لباب بيتى ، فوافق التاسوع على كل ما قال . وبعد أيام عدة مرت على ذلك ، رفع الباطل عينيه لينظر فرأى فضائل الحق أخيه الأكبر ، عندئذ قال الباطل لخادمين من خدم الحق : خذا سيدكما وادفعاه لأسد ضار ولبؤات عديدة . . . فقبضا عليه ، وإنهما ليصعدان به إذ قال الحق لخادميه لا تأخذانى ، ولكن سلما غيرى مكانى واذهبا أتيا إلى المدينة وجدا لى شيئاً من خبز .

وبعد أيام عدة مرت على ذلك خرجت فتاة من منزلها ومعها توابعها اللاتى رأين الحق متكئا عند سفح التل ، وكان الحق جميلا لا يدانيه فى جماله إنسان فى الأرض كلها ، فذهبن إلى حيث كانت سيدتهن وقلن لها : تعالى معنا فانظرى إلى الضرير المتكىء عند سفح التل ، فلنأت به ولنجعله حارساً لباب بيتنا ، فقالت لهن السيدة : اذهبن فأحضرنه حتى أراه ، فذهبن فأحضرنه . فلما رأته السيدة رغبت فيه جداً جداً وقد رأت أنه جميل فى أعضائه ،

فاضطجع معها أثناء الليل وعرفها معرفة الرجال (للنساء) فكان أن حملت في هذه الليلة غلاماً صغيراً .

ابن الحق

وبعد أيام عديدة مرت على ذلك ، وضعت غلاماً ذكراً لا مثيل له في البلاد كلها ، وذلك أنه كان كبيراً كأنه إله صغير ، ثم أرسل إلى المدرسة حيث تعلم الكتابة جداً جداً ومارس أعمال الرجال حتى فاق زملاءه الأسن ممن كانوا في المدرسة معه .

ثم كان أن سأله زملاؤه : ابن من أنت ، إنك عديم الأب فساؤوه وآلموه ، الواقع أنك بغير أب . فسأل الغلام أمه قال : ما اسم أبي حتى أخبر به زملائي فإنهم يقولون في خبث أين أبوك ، كذلك يقولون ويؤلمونني فقالت له أمه : أنظر إلى هذا الضرير الذي يجلس إلى جانب الباب ، إنه أبوك ، كذلك قالت له فقال (هو) لها ، فذلك أمر يدعى له رجال أسرتك ليطلوا لك تمساحاً (ليفترسك) .

وأحضر الغلام أباه فأجلسه ، فجعل كرسيا من تحته وجعل مسند أقدام تحت قدميه ، ووضع بين يديه خبزاً وجعله يأكل ويشرب . ثم قال الغلام لأبيه : من أعماك حتى أنتقم لك . فقال له . إنه أخي الصغير الذي أعماني ثم روى له كل ما حدث ، وكان أن مضى الغلام يطلب الانتقام لأبيه ، فأخذ عشرة أرغفة وعصا واحدة ونعلين وقربة واحدة وسيفاً واحداً ، ثم أحضر ثوراً جميلا جميلا في منظره ، ثم مشى إلى راعي الباطل فقال له : خذ هذه الأرغفة العشرة وهذه العصا وهذا السيف وهذين النعلين وارع لي هذا الثور حتى أعود من المدينة .

الانتقام

وبعد أيام عديدة مرت على ذلك ، وكان ثوره قد أتم شهورا عدة عند راعى الباطل ، ذهب الباطل إلى الحقل ليرى ثيرانه فرأى ثور الغلام وكان جميلا جدا جدا فى مظهره ، فقال لراعيه أعطنى هذا الثور آكله . فقال الراعى إنه ليس لى . . . ولا أستطيع اعطاءه لك فقال له الباطل : أنظار إن ثيرانى بين يديك من أولها لآخرها ، أعط واحدا منها لصاحبه .

وكان الغلام يسمع القول بأن الباطل سوف يأخذ ثوره فذهب إلى حيث كان الراعى فقال له : أين ثورى فانى لا أراه بين ثيرانك فقال له الراعى : ها هى الثيران كلها بين يديك من أولها لآخرها . فخذ لنفسك أيها شئت ، فقال له الغلام : هل من ثور له مثل حجم ثورى ، إنه إن وقف فى بلامون استقر شعر ذيله على سيقان البردى وأحد قرنيه على جبال الغرب وقرنه الآخر على جبال الشرق ، إن النهر العظيم مضجعه ويولد له ستون عجلا كل يوم فقال له الراعى : هل من ثور يكون بالحجم الذى تقول ، ولكن الغلام أمسكه وأخذه إلى حيث كان الباطل ثم أخذ الباطل إلى المحكمة أمام التاسوع فقال الآلهة للغلام : ليس هذا صحيحا . . . فما رأينا ثورا بالحجم الذى تقول فقال الغلام للتاسوع : فهل هناك سكين بالحجم الذى ذكرتموه ، سلاحها جبل ايل ومقبضها أشجار قفط وقرابها قبر الآله وحزامها قطعان كار . ثم قال الغلام للتاسوع : احكموا بين الباطل فانى أنا الولد الذى جاء ينتقم له . وعندئذ حلف الباطل بالملك قائلا : بحياة آمون وحياة الأمير لئن وجد الحق حيا فلتطمس عيناى الاثنتان ولا كن حارسا باب بيت الصدق ، ثم حلف الغلام... لئن وجد حيا ليأتين الباطل وليضربوه مائة جلدة وليجرحوه خمسة جروح وتطمس عيناه الاثنتان وليجعلوه حارس باب الصدق . . .

وبذلك انتقم الولد لأبيه وحسم النزاع بين الحق والباطل .

* * *

لم يكن أبطال هذه القصة شخوصا ممن نألف فى القصص القديم أو الحديث عادة ، ولكنها قصة بين الحق والباطل أراد لها كاتبها على سذاجتها أن تكون قصة أخلاقية تدور حول الخير والشر ، حتى يعلم الناس أن الشر مهما ظهر وانتصر فهو إلى الزهوق والهزيمة وأن الخير مهما أصابته المحن والخطوب فهو إلى الظهور والانتصار .

على أن هذه القصة لا تعدو أن تكون صورة أخرى من قصة إيزيس وأوزريس ، حيث تآمر ست على أخيه فقتله ثم قام حور ابنه لينتقم له ، ويحتكم إلى التاسوع فيحكم له . لذلك نشعر من سياق القصة أن وقائعها قد رسفت فى قيود الاقتباس والتقليد ، حيث أريد للحق أن يكون له ولد ينتقم له من عمه ، فكان زواجه من تلك السيدة التى حالت البردية الممزقة دون تعريفنا من تكون ، وهو الزواج الذى لم يعلن للناس فكان موضع الغمز واللمز ، وكان ان امتحن به ولد الحق بين أقرانه فى المدرسة كما امتحن حور حين غمزه عمه ست فى نسبه إلى أوزيريس .

ولقد حاول الكاتب أن يبرز الحادث الخلقى فى القصة ، فإن الولد قد أوجب على أمه الموت حين أوشك أن يتهمها ويظن بها الظنون ، فود لو جمع الأسرة لتدفع أمه إلى تمساح يفترسها على ما ظن أنها اقترفت من الاثم ، كأن القصة بذلك تريد أن ترفع من سلطان العدل وحرمة الأخلاق ، ولو سلط سيف العذل على الأمومة وما لها من الحرمة وحق الرعاية والوفاء ، على حين أبرز من ناحية برّ أخرى الولد بأبيه ورحمته به حين أقبل عليه فأجلسه أحسن مجلس وحرص على طعامه وشرابه ثم عاهده على الانتقام له . ثم تمضى القصة فتصور لنا كيف تكون الحيلة وكيف يكون المكر حيث دبر الولد لعمه جزاء من جنس عمله وحجة تشبه حجته وتفرعها ، حتى ظفر من التاسوع بالاقتناع ثم بالحكم العادل الذى انتقم به لأبيه .

الاخوان

قيل إنه كان فى يوم من الأيام اخوان من أم واحدة وأب واحد ، وكان اسم الأكبر أنوپو واسم الأصغر باتا، وكان لأنوپو بيت وزوجة ، على حين كان الأخ الأصغر يسكن معه كولد له ، وكان هو الذى يصنع ملابسه ويرعى ماشيته ، وهو الذى يزرع له ويحصد . . . انظر لقــــد كان أخوه الأصغر فلاحا ماهرا لا مثيل له فى البلاد طرا ، أنظر لقد كانت فيه نفحة من الآله .

ومضت أيام كثيرة على ذلك ، والأخ الأصغر يخرج فى الصباح يرعى الماشية كما اعتـاد فى كل يوم . ثم يعود فى المساء إلى بيته محملا بخضر الحقل من كل نوع مع اللبن وكل أطايب الحقول . فيمده بين يدى أخيه وهو جالس مع زوجته يأكل ويشرب ثم يذهب لينام فى حظيرته بين الماشية .

فاذا أضاءت الأرض وأقبل يوم جديد هيأ الخبز فوضعه أمام أخيه فيعطيه خبزا الحقل ثم يسوق ماشيته لترعى فى الحقل، وكان يمشى من وراء ماشيته التى تقول له إن الحشيش الطيب فى مكان كذا وكذا فيصغى لكل ما تقوله ويقودها الى الحشيش النضر الذى تتوق اليه . وكانت الماشية التى يحرسها تزدهر جدا جدا تلد صغارا كثيرة جدا جدا .

فلما كان فصل الحرث قال الأخ الأكبر أعدلنا ثورين فقد ظهرت الارض

وهى الآن صالحة للحرث ، وكذلك احمل الى الحقل البذر فسوف نجتهد فى فى الحرث إذا كان البكور . فلما قال له ذلك فعل الأخ الأصغر كل ما أمره به أخوه الأكبر .

ولما أن أضاءت الأرض وأقبل يوم جديد ، خرجا إلى الحقول يحملان ما لهما من بذر فحرثا حرثاً مجهدا وقد فرحا جدا جدا لبدئهما العمل .

الاغراء

ثم مضت أيام كثيرة على ذلك ، وإنهما لفى الحقل إذ احتاجا الى البذور فأرسل الأخ الأكبر أخاه الأصغر قائلا : أسرع واحمل الينا بذرا من البلدة، فلما ذهب الأخ الأصغر وجد زوجة أخيه جالسة تمشط شعرها فقال لها : انهضى فاعطنى بذرا حتى أسرع الى الحقل لأن أخى هناك ينتظر، لا تتلكأى فقالت له : اذهب وافتح صندوق الغلال واستخرج منه ما تريد ولا تحملنى على ترك شعرى ، فذهب الشاب الى حظيرته فأحضر وعاء كبيرا . . . فاحتمل شعيرا وقمحا وخرج به فقالت له : كم تحمل على كتفك فأجاب : ثلاثة مكاييل من قمح واثنين من شعير . . . قالت له : إن فيك لقوى هائلة وإنى لألحظ قوتك دائما ومال قلبها لأن تعرفه كما تعرف المرأة الرجل فنهضت اليه فأمسكت به وقالت له : دعنا ننفق ساعة ونضطجع فذلك ممتع لك وسأصنع لك الثياب الجميلة .

ولكن الشاب تحول كأنه فهد الجنوب من الغضب لهذا الأمر الخبيث الذى حدثته به ، فاذا هى تخاف جدا جدا قال لها : انتبهى انك لى بمثابة أمى وزوجك بمثابة أبى لأنه أسن منى وهو الذى ربانى ، يا له من إثم عظيم قلتيه

إياك أن تتحدثى به إلى مرة أخرى،أما أنا فلن أدعه يخرج من فى ، ثم أخذ حمله فوصل إلى حيث كان أخوه وظلا يعملان بجد .

الوقيعة

فلما أقبل المساء عاد الأخ الأكبر إلى البيت ، وظل الصغير يرعى ماشيته فلما احتمل الخضر . . عاد يسوق ماشيته أمامه إلى حيث يبيت فى الحظيرة

أما الزوجة فقد كانت خائفة جدا جدا لما فرط من إغرائها فتناولت دهنا وشحما وتظاهرت بأنها ضربت . . . فلما عاد زوجها عند المساء كعادته ألفى زوجه طريحة الفراش كمن أصابها الضر ، فلم تصب على يديه الماء كما اعتادت ولم تضىء النور فى طريقه واذا البيت فى ظلام ، وكانت راقدة تقىء فقال لها زوجها ، من ذا الذى كلمك فقالت : لم يكلمنى أحد سوى أخيك الأصغر فانه لما جاء يأخذ البذر وجدنى جالسة أمشط شعرى فقال لى دعينا نمض ساعة ونضطجع ، ولكنى لم استمع له وقلت له : انظر ألست لك بمثابة أمك وأخوك بمثابة أبيك ، ذلك ما قلت له فخاف وضربنى لكيلا أحدثك بالأمر ، إنك ان أبقيت على حياته فلا بد أن أموت أنا ، انظر إنه عندما يعود فى المساء وأروى ما حدث فسوف يحاول تبرئة نفسه .

الانتقام

واذا الأخ الأكبر يتحول من الغضب كأنه فهد الجنوب فيشحذ خنجره ويشهره فى يده ، وذهب فتوارى خلف الحظيرة ليقتل أخاه عند عودته فى المساء ، فلما مالت الشمس احتمل نتاج الحقل كعادته فى كل يوم .

ولما وصل ودخلت طليعة الأبقار إلى الحظيرة قالت « إن اخاك يقف في وجهك بخنجره ليقتلك » ففهم قول طليعة الأبقار ، وقالت البقرة الثانية القول ذاته فأطل من تحت أبواب الحظيرة فوجد قدمى أخيه الأكبر واقفا من وراء باب الحظيرة والخنجر فى يده فحط حمله على الأرض واسلم نفسه للفرار بكل سرعته فتعقبه أخوه الأكبر بخنجره .

ونادى الاخ الاصغر رع حر اختى قائلا : إلهى العادل إنك أنت الذى تفصل بين المذنب والمحسن ، فسمع رع حراختى دعاءه وجعل بينه وبين اخيه لجة من ماء تغص بالتماسيح . . وإذا الأخ الأكبر يضرب كفا بكف لعجزه عن قتله فصاح أخوه الأصغر من الضفة الأخرى قال : انتظر هنا حتى تضىء الأرض ، فإذا ارتفع قرص الشمس احتكمت معك إليه فيعطى المذنب إلى البرىء ، اما أنا فلن أعيش معك ابدا ، ولن ترانى فى مكان أنت فيه ولكنى ذاهب إلى وادى الأرز (لبنان) .

البراءة

فلما أن أضاءت الأرض وأقبل يوم جديد وارتفع رع حراختى رأى كل منهما الآخر ، فقال الأصغر : لم تبعتنى لتقتلنى غدرا قبل أن تسمع لما يقول فى ، ألست أخاك الأصغر وأنت لى بمثابة الأب وزوجك بمثابه الأم ؟ انظر ، إنك حين أرسلتنى لإحضار البذر قالت زوجتك لى دعنا نمض ساعة ونضطجع ، ولكن انظر لقد قلب ذلك وعرض نقيضه عليك ، ثم حدث أخاه بكل مادار بينه وبين زوجته وأقسم يمينا بالإله رع ثم قال : انظر لقد بسطت يدك لتقتلنى غدرا لوقيعة بغى عاهرة ، ثم تناول حدا من غاب وقطع به قبله ورماه فى النهر حيث ابتلعه قرموط فخارت قواه وأغمى

عليه واشتد مصابه ، فامتلأ قلب أخيه عليه حزناً كثيراً وأجهش ببكاء مرتفع وهو هناك لا يستطيع الوصول لأخيه خوفاً من التماسيح .

الفراق

ثم صاح الأخ الأصغر : انظر ، لقد استقر فى فؤادك الشر ، أما كان فى طوعك أن يكون خيرا ، فتتذكر من كل مافعلت من أجلك فعلا طيبا واحدا ؟!

والآن عد إلى بيتك وارع ماشيتك بنفسك فلن اقيم بعد ذلك فى مكان أنت فيه ، ولكنى ذاهب إلى وادى الأرز ، أما ماعسى أن تفعل من أجلى فذلك بأن تقبل لتعتنى بى إذا عرفت أن شيئاً أصابنى ، ذلك أنى سوف انتزع قلبى وأضعه على زهرة الأرز ، فإذا قطعت الأرزه فوقع على الأرض وأتيت تبحث عنه ثم انفقت فى البحث سبع سنين فلا تيأس ، فإذا عثرت عليه ووضعته فى وعاء من ماء بارد فأنى عندئذ أعود إلى الحياة كى أرفع ما رميت به ، وسوف تعرف متى ينزل بى السوء إذا وضع فى يدك كأس من جعة فأرغى إلى حافته ، فلا تتوان إذا وقع ذلك .

ثم رحل الأخ الأصغر إلى وادى الأرز ، وعاد الأخ الأكبر إلى بيته ويده على رأسه الملطخ بالتراب ، فلما بلغ بيته قتل امرأته وألقى بجثتها إلى الكلاب ثم جلس محزونا من أجل أخيه .

وتمضى الأيام الكثيرة على ذلك ، وقد عاش أخوه الأصغر فى وادى الأرز وحيدا ليس معه أحد ، كان ينفق اليوم فى صيد وحش الصحراء ، فإذا كان المساء عاد لينام تحت شجرة الأرز التى كان قلبه على زهرتها . ومضت

الأيام العديدة فشيد لنفسه فى وادى الأرز قصرا حفل بكل شىء جميل، ذلك أنه أحب أن ينشىء لنفسه بيتا .

وخرج من بيته يوما فلقى تاسوع الآلهة الذى خرج يدبر أمور الأرض فقالوا فى فم واحد : يا باتا، يا لخال التاسوع الست هنا وحيدا منذ هجرت بلدتك من أجل امرأة انوبو أخيك الأكبر ، أنظر لقد قتل امرأته وقد دفعت ما اتهمت به ، ومالت قلوب التاسوع بالرحمة عليه ، فقال رع حراختى لخنوم : أخلق زوجة لباتا حتى لا يعيش وحده. فسوى خنوم رفيقة له كانت أجمل النساء فى الأرض طرا لأنها احتوت كل الهى فى جسدها ، وأقبلت الحتحورات السبع فرعينها وقلن فى صوت واحد ستموت بالسكين .

وأحبها باتا اقصى غاية الحب وعاشت فى بيته ، وكان يصطاد وحوش الصحراء طوال اليوم ثم يعود بصيده فيمده عند قدميها . . قال لها (يوما) لا تخرجى من البيت حتى لا يجرفك التيار فلن استطيع انقاذك وانا امرأة مثلك ، وقلبى مودع بزهرة ارز إذا وجده سواى قاتلته وكشف لها عما فى قلبه جميعا .

وهكذا تمضى الأيام ويخرج باتا للصيد كما تعود كل يوم وخرجت الفتاة تتنزه تحت الأرز القائم عند بيتها فرآها البحر فتبعها بمياهه فهربت منه وجرى إلى بيتها فصاح اليم للأرز ، اقبض لى عليها فكان أن انتزع الأرز خصلة من شعرها فحملها التيار إلى مصر فألقاها حيث كان غسالو فرعون قائمين وإذا عبيق الخصلة يعلق بملابس فرعون فثار على الغسالين وقال لهم : إن فى ملابس فرعون عطرا حلوا . فقام النزاع بينهم كل يوم وهم لا يعرفون ماذا يفعلون ، ثم كان أن ذهب رئيس الغسالين يوما إلى ضفة النهر وقد ضاق صدره بذلك النزاع الذى يحل عليه كل يوم ، فوقف على الرمال فإذا

هو قبالة الخصلة التي كانت فى الماء ، فأرسل من يأتيه بها فوجد عطرها رائعاً جدا فحملها إلى الملك .

ثم كان أن دُعى كتاب الفرعون وحكماؤه فقالوا لفرعون إن خصلة الشعر لبنت من بنات رع حراختي وفيها نغمة من كل إله وإنها هدية لك فلتأمر بالرسل فليبعثوا فى أنحاء البلاد بحثا عنها ، ومر بالمبعوث إلى وادى الأرز أن يصحب معه خلقاً كثيراً حتى يحضرها، فقال إن ما قلتم لهو حسن جدا

ومضت أيام كثيرة ، وعاد الرسل الذين بعثوا إلى البلاد الأجنبية ليرفعوا تقاريرهم إلى الملك ، أما الذين أرسلوا إلى وادى الأرز فلم يعودوا ، ذلك أن باتا قتلهم جميعاً إلا واحداً تركه ليحدث جلالته بالخبر ، ولكن جلالته أنفذ جنداً كثيفاً وعجلات لإحضارها ومعهم امرأة تعطيها أنواع الحلى الجميل وزينة النساء ، فجاءت الفتاة معها إلى مصر — فعم الفرح من أجلها أنحاء الأرض وأحبها جـــلالته حباً عظيما وخلع عليها لقب الحبيبة العظمى .

ولما أن أضاءت الأرض وأقبل يوم جديد . . . ذهب انوبو إلى بيته فجلس وغسل يديه وأقبلت خادم عليه بإناء من جعة فأرغى ، فأحضرت له كوباً من نبيذ فكان حامضاً ، فتناول عصاه و نعليه وأخذ ملابسه وسلاحه ثم تولى إلى وادى الأرز ، فلما دخل قصر أخيه الأصغر وجده فى فراشه ميتا . فلما رآه ميتاً بكى عليه ، ثم خرج ليبحث عن قلب أخيه تحت شجرة الارز التى كان أخوه ينام تحتها فى المساء ، فأنفق ثلاثة أعوام كاملة وهو لا يجده ، فلما أقبل عام رابع كان فؤاده قد حن للعودة إلى مصر فقال سوف أرحل إذا كان الغد وكان ذلك ما قال فى قلبه .

ولما أضاءت الأرض وأقبل يوم جديد، ذهب تحت شجرة الأرز فقضى

اليوم كله بحثا ، ثم عاد فى المساء فأنفق الوقت بحثا كذلك ، فوجد حبة عادية فإذا هى قلب اخيه الاصغر ، فأتى بوعاء من ماء بارد وضع القلب فيه ثم جلس كعادته . ولما جن الليل وكان القلب قد امتص الماء إذا باتا يهتز جسده كله ثم إذا هو قائم ينظر إلى أخيه وما زال قلبه فى الوعاء فتناول أخوه انوپو وعاء الماء البارد الذى فيه القلب فسقاه اياه ، فلما ابتلعه واستقر القلب فى موضعه إذا بهما يتعانقان وطفق كل واحد منهما يتحدث إلى صاحبه.

ثم قال باتا لأخيه ، انظر انى سأتحول إلى ثور كبير فيه كل لون جميل ولن يعرف طبيعته أحد ، وسوف تمتطى ظهرى ، فإذا طلعت الشمس كنت عند زوجتى حيث ارد عليها ما فعلت ، وخذنى إلى الملك الذى يؤدى إليك كل خير فتحمل بالذهب والفضة . . لأنى سأكون معجزة ويحتفل الناس بى فى انحاء البلاد كلها ثم تعود إلى بلدتك .

فلما أضاءت الأرض واقبل يوم جديد تحول باتا إلى الهيئة التى حدثه اخاه الأكبر بها ، وجلس انوپو على ظهره فوصل عند الفجر إلى القصر حيث عرض الثور على جلالته . . ففرح به فرحا عظيما وقدم إليه القرابين الكثيرة قائلا : إنه لشىء عظيم ، وفرح الناس به فى انحاء البلاد جميعا وحمل أخوه بالفضة والذهب واستقر فى قريته .

وعين له (الثور باتا) الخدم وقدم له الخير الكثير واحبه فرعون جدا جدا اكثر من رجال هذا البلد كله .

ومضت الأيام العديدة على ذلك وذهب (باتا الثور) إلى الحريم حيث وقف عند السيدة المحبوبة فتحدث إليها قائلا « انظرى إنى مازلت حياً فقالت له من انت فقال : انى باتا ، لقد كنت تعلمين عندما حملت فرعون على قطع الشجرة إنى لن أحيا بعد ذلك ، ولكن انظرى انى حى ، انى ثور وإذا

المحبوبة ترتاع جدا جدا مما قال زوجها ، وخرجت إلى الملك لجالسها وأنفق معها وقتا سعيداً وكانت هي قائمة تساقيه فتلطف لها الملك جدا جدا فقالت لجلالته احلف لى بالاله قائلا : مهما تقل اسمعه لأرضائها ، واستمع هو لكل كلمة قالتها فقالت ، سألتك كبد هذا الثور آكله فهو غير ذى نفع لنا ، فجزع الملك لقولها وامتلأ قلبه حزنا من أجله .

فلما أن اضاءت الأرض وأقبل يوم جديد أعلن عن احتفال عظيم ، وقدمت القرابين للثور وأرسل جلالته احد رؤساء جزاريه ليذبح الثور ، فذبح وإذا به وهو على أكتاف الخدم يهز عنقه فيسقط قطرتين من دم عند البابين العظيمين ، فكانت احداهما على أحد جانبي الباب والأخرى على الجانب الآخر ، فكان أن نبتت دوحتا لبخ عظيمتان كانت كل منهما رائعة ، وذهب من أخبر جلالته اثناء الليل ، فأقيمت الأفراح لذلك فى أنحاء البلاد وقدمت لهما القرابين .

ومضت ايام كثيرة وأشرق جلالته فى نافذة اللازورد وفى عنقه اكليل من كل انواع الزهر فاعتلى عجلته الذهبية وخرج من قصره ليرى الدوحتين وخرجت المحبوبة فى موكب من ورائه ، هناك جلس جلالته تحت دوحة وجلست المحبوبة تحت أخرى فتحدث باتا إلى زوجته قال أيتها الخائنة ، إننى باتا ، إننى حى على الرغم منك ، وإنك لتعلمين انك حملت فرعون على قطع الارزة ، فلما تحولت إلى ثور ذبحتنى .

ومضت ايام كثيرة وكانت المحبوبة يوما قائمة تساقى فرعون فتلطف معها فقالت لجلالته ، احلف لى بالإله قل مهما تقل اسمعه لارضائها. فسمع لكل ما قالت فقالت عندئذ، مر بقطع هاتين الدوحتين واستصنع منهما اثاثا جميلا فسمع لكل ما قالت وسرعان ما امر جلالته عماله المهرة فقطعت دوحتا الملك ، وكانت الزوجة الملكية المحبوبة ترقب ذلك فطارت شظية دخلت فم المحبوبة فابتلعتها فحبلت فى الحال ، وصنع من الشجرتين كل ما ارادت .

ومضت الأيام الكثيرة على ذلك ووضعت السيدة غلاما ذكرا ، فذهب الناس فحدثوا جلالته قالوا : لقد ولد لك غلام ذكر ، فلما حمل إليه عين له مرضعة وخدما وأقيمت الأفراح به فى أنحاء البلاد جميعاً وجلس الملك فأمضى يوماً سعيداً وكان فى عيد ، وأحبه جلالته جداً جداً لساعته وسماه الابن لكوش ، وبعد أيام عديدة جعله جلالته ولى عهده على البلاد كلها .

فلما مضت السنون العديدة وهو ولى للعهد ، صعد جلالته إلى السماء فقال (باتا) عندئذ ، فليدع حكام جلالته حتى أحدثهم بكل ما وقع لى . ودعيت زوجته فحاكمها على ملأ منهم ونفذ فيها حكم القصاص ، ثم دعى إليه أخوه الأكبر فجعله ولياً لعهده على البلاد كلها . ولما قضى ثلاثين عاما على العرش وافاه أجله وقام أخوه الأكبر مكانه يوم وفاته .

قصة تنفرد فى الأدب المصرى القديم بما فيها من هذا النوع من الخرافة والخيال ، ولا نكاد نمضى فى قراءتها حتى نحس كأنما نقرأ فصلا من فصول ذلك الكتاب العربى المشهور ألف ليلة وليلة . ومع ذلك فالقصة على ما فيها من صور الخيال ممتعة مشوقة فضلا عما حوت من تصوير لحياة المصريين الأقدمين وما ترى فيها من لمحات نألفها فى غير قصص المصريين من آداب .

فالقصة تجرى فى الريف المصرى حيث الزراعة عماد الحياة وحيث النظام الاجتماعى الذى يفرض على الأخ الأكبر القوامة على أخيه اليتيم . وحاصل القصة فى مجموعها إنما هو تاريخ لصنف من المرأة السيئة وما جبلت عليه من الخيانة وما طبعت عليه من المكر والكيد ، ومن استهتار برباط الزوجية وعقدته المقدسة ، والقصة هنا تتناول مشكلة من أعقد مشاكل الإنسان ، إذ تضطر الأخ الأكبر إلى رعاية أخيه فيضمه فى بيته بينه وبين زوجه ، والرجل فى

ذلك إنما يعتمد على وفاء الزوجة وأمانة الأخ وعرفانه ثم لا عاصم أو رقيب بعد ذلك إلا الفطرة السليمة والخلق القويم .

ويبدو أن القصص المصرى القديم إنما كان يحمل المرأة من الوزر والتبعة أكثر مما يحمل الرجل ، ويجعلها المسؤلة عما يقع من فساد ، فقد جاء الإغراء فى هذه القصة وفى غيرها من قصص المصريين من قبل المرأة .

وقصة الأخوين هى قصة المرأة التى تنزغ بين الأخوين وتفسد ما بينهما من أواصر الحب والأخوة، وتدمر بخيانتها بيتا كان آمنا مطمئنا يحيا فى خفض ورغد من العيش . وقصة الخير والخيرين وما عسى أن يتعرضوا له من ألوان المحن والخطوب وما قد ينزل بهم من الشر . وقصة القديسين الذين لا تخلوا حياتهم من الشدائد والآلام ثم غلبة الحق آخر الأمر وانتصاره .

ولا تخلو القصة مع ذلك من فصول خليقة بالتأمل والنظر، لأنها لا تخالف عما ألفنا من قصص قرأناها فى الأدب القديم والحديث جميعا ، وما فيه من أخيله وصور متشابهة إلى حد بعيد .

وأقرب القصص إلى الشبه بقصتنا قصة يوسف عليه السلام ، فنجد الصغير الذى قام على تربيته رجل أكرم مثواه عسى أن ينفعه أو يتخذه ولدا ، فاذا بامرأته تراود الفتى عن نفسه ، ثم تعود فتدفع عن نفسها الشبهة باتهام الفتى العف البرىء ، ولا تقنع الا بتحريض زوجها عليه ، ثم يقدر للفتى أن تظهر براءته ثم يقوم للبلاد حاكما بعد الشدائد والآلام .

وقصة مشابهة أخرى من الأدب الروسى الحديث ، فقد روى أن شابا يسمى ايفان بن جرمان وجد سيفا سحريا حارب به الترك فأبلى به أحسن البلاء وقتل منهم ثمانين ألفا، فكان أن كافأه الملك بتزويجه ابنته كايو باترا ، ثم خلفه على العرش بعدوفاته ، ولكن البطل الروسى يتعرض لمحنة كتلك التى تعرض

لها باتا فى القصة المصرية،فقد خانته زوجته وسلمت هى نفسها لسلطان الترك، ومع ذلك فقد استطاع الفتى البطل أن يعود إلى الحياة بمساعدة أبيه ، ثم انطلق حتى إذا لقى فلاحا قال له : إنى جاعل نفسى حصانا جميلاذا معرفة من ذهب ، وعليك أن تقودنى إلى قصر السلطان ، فلما رأى السلطان الحصان أعجب به وأخذه ، ولكن كايوباترا طلبت منه أن يذبحه فذبحه فنشأ من دم الحصان ثور أمرت بذبحه كذلك فنبتت من رأسه شجرة تفاح أمرت كايوباترا بقطعها ، فطارت منه شظية تحولت ذكراً عظيما من البط حاول السلطان صيده فأفلت منه ، ثم عاد إيفان فى صورة السلطان ليلقى بزوجته وعشيقها فى النار ويستولى على الملك .

ومهما كان من شىء فقد رأينا أن الشر قد حل بين الأخوين ولم يعد سبيل لأن يساكن أحدهما الآخر ، وإنما أحس المظلوم منهما أنه جرح فى كبريائه وكرامته،وأنه كوفىء على الخير بالشر وعلى النفس البريئة بالاتهام الباطل وعلى الجميل بالجحود والنكران ، وقد عبر الفتى الصغير عن ذلك وهو يحاور أخاه بأسلوب مؤثر على سذاجته ، جميل على خلوه من الصنعة والتزويق . وخرج الفتى يضرب فى الأرض مفارقا أخاه فينفى نفسه فى وادى الأرز فى لبنان وفى ذلك إشارة على ما كان بين مصر يومئذ وبين غيرها من صلات ، ويستقر هناك وحيداً لا معين ولا رفيق ،ويحيا هناك جسدا لا شهوة فيه ولا روح ، ولكن التاسوع الألهى يمتحنه كما امتحن آدم بحواء ، فيرزقونه امرأة قصدوا بها إلى أن تملأ حياته حنانا وبرا فأحبها الفتى وأحاطها بالرعاية وخشى عليها كل مكروه ، ثم جعلها موضع ثقته ، ففتح لها قلبه ، واعترف لها بنقصه الجثمانى الذى أنزله بنفسه وهو يتبرأ من تهمته أمام أخيه،وحدثها بأنه بذلك ، مثلها كالمرأة ، فلا يستطيع معاشرتها معاشرة الأزواج ، والقصة هنا تمس جانبا آخر من جوانب الحياة الاجتماعية ومشاكلها فيما يفترض فى

الزوج من الصحة وسلامة الأعضاء ليصح زواجه ويبقى ، فإن لم يكن كذلك انتفى رباط الزواج وانهار ، فما أسرع ما انقلبت الفتاه على زوجها حين أتيح لها ذلك رغم ما فى حياتها من الرغد واليسر .

ثم تعود الأيام لأحكام ذلك الامتحان العسير الذى قدر على باتا ، فقد عرف فرعون بمكان تلك المرأه فشغف بها وطمع فيها لنفسه كما يطمع الملوك وأولوالبأس فيهما نقرأ من آداب الشعوب ، فإذا هو يرسل إليه من يغتصبها اغتصابا ويغريها بمفارقته ، ولكن الفتى بما فيه من الحيـة والبسـالة يدافع عن عرضه فيقتل الجنود جميعا إلا واحداً أبقى عليه ليحدث فرعون بما حل بجنود أطماعه .

ومهما يكن من شىء فان الفتاه تؤول إلى فرعون فتفارق زوجها قالية له مع المرأة التى أرسلت لإغرائها واصطحابها ، وهى فى هذا قد قامت مقام القهرمانات فى ألف ليلة وليلة ، وتقبل الفتاة الخائنة فتزيد إثبات إخلاصها لفرعون بالغدر بزوجها فتظل تتعقبه لتقضى عليه ، ولكن الفتى يعود إلى الحياة بصورة أو بأخرى ، فهو الصراع بين البقاء والعدم، ثم يعود فيتكرر مولده وتقضى أقدار القصة بأن التى تهب له الحياة فى المولد الثانى إنما هى نفس المرأة التى تتعقبه بالفناء ، ثم يقوم سيداً للبلاد فيحكمها ثم يخلفها لأخيه .

والقصة آخر الأمر توضح لنا مكان المرأة فى المجتمع المصرى القديم وواجباتها بالنسبة لبيتها وزوجها ، فقد فهمنا أن امرأه أنوبو كانت قائمة على شئون البيت وخزينه وأنها كانت تستقبل زوجها منصرفه من الحقل وعودته إلى البيت فتضىء له الطريق وتصب على يديه الماء قبل الطعام . وكذلك تحدثنا القصة عما فى خيال المصريين من فكرة عن المرأه وما قد يكون لها من نفوذ على الرجال، وذلك فيما كان من حبيبة فرعون التى استطاعت أن تحمله على قتل الثور الذى قدسه الناس وقطع الدوحتين اللتين فرحوا بهما .

أما أسلوب القصة فهو من قبيل الأساليب الشعبية فلا تكلف فيها ولا صنعة ، وإنما كثرت فيها التعبيرات والصيغ المتكررة التى يصطبغ بها القصصى الشعبى عادة والتى ما يزال قصصنا الشعبى يتخذ مثلها بين فقراته .

القدر المحتوم

يحكى أن ملكا لم يولد له ولد ذكر ، فكان أن دعا جلالته أن يرزق بولد من لدن آلهة زمانه ، فقرروا أن يولد له ولد. وكان أن اضطجع مع امرأته فى الليل ، انظر ، وإذا بامرأته تحمل ، فلما أتمت أشهر الحمل ولد لهما غلام ذكر .

وجاءت الحتحورات ليقررن له مصيره ، فقلن إنه سوف يموت من التمساح أو الثعبان أو الكلب ، وسمع الناس من حول الطفل ذلك فيعيدونه على جلالته ، فحزن قلب جلالته حزنا عظيما ، ولذلك فقد ابتنى جلالته له بيتا من الحجر فى الصحراء وجهزه بالناس ومن كل شىء طيب من القصر الملكى وإذا الطفل لا يخرج منه .

فلما شب الصبي صعد إلى سطح منزله فرأى كلباً من وراء رجل يمشى فى الطريق ، فقال لتابعه الذى إلى جانبه « ما هذا الذى يمشى من وراء ذلك الرجل المقبل فى الطريق ؟ فقال له إنه كلب فقال الصبي مر فليؤت لى بواحد مثله ، فذهب التابع فأخبر بذلك جلالته فقال جلالته فليحمل اليه جرو صغير حتى لا يحزن فؤاده ، فحمل اليه الكلب .

ومرت الأيام ونما الصبي بعدها فأرسل إلى أبيه يقول ، حتام أقعد هنا؟ انظر لقد قدرت على مصائر ثلاثة ، فلأترك أفعل ما أهوى حتى يقرر الرب ما يريد . فكان أن أعدت له مركبة جهزت بكل أنواع السلاح وجعل له رجل من ورائه تابعاً له ثم عبروا به إلى الشاطىء الشرقى وقيل له انطلق حيث تشاء ، فأخذ كلبه معه وانطلق إلى الشمال كما أراد فى الصحراء حيث عاش على خير أنعام البرية ثم وصل إلى حاكم النهرين .

انتظار ، ولم يكن قد ولد لحاكم النهرين إلا مولودة أنثى ، انتظر وقد أقيم لها منزل ذو نوافذ عالية بمقدار سبعين ذراعا عن الأرض ، وأمر الحاكم فأحضر أبناء العظماء فى أرض سوريا فقال لهم : من بلغ نافذة ابنتى كانت له زوجة .

فلما مضت أيام كثيرة على ذلك وهم فى عاداتهم اليومية مر عليهم الصبى فأخذوا (ذلك) الإبن الملكى إلى بيتهم فنظفوه وقدموا طعاما لجواده ، وقدموا كل شىء للصبى فعطروه وضمدوا أقدامه وأعطوا طعاما لتابعه ، ثم قالوا له وهم يحدثونه : من أين أتيت أيها الغلام الطيب فقال لهم : إننى ابن ضابط من أرض مصر ، ماتت أمى وتزوج أبى امرأة أخرى مكانها ، وقد حدث أن كرهتنى فأتيت هاربا منها . . ولما مضت أيام عديدة على ذلك قال للصبية ، ما هذا الذى تفعلون فقالوا له : أنظر لقد أنفقنا الشهور والأيام ونحن نحاول الصعود ، ذلك أن من يبلغ نافذة بيت أمير النهرين فسوف يعطيها له زوجة ، فقال لهم : هل لى أن أجرب قدمى ، فأصعد معكم ، وذهبوا للصعود كعادتهم كل يوم ووقف الصبى عن كثب يشاهد ، وإذا وجه ابنة أمير النهرين يشرف عليه ، وبعد أيام عديدة حدث أن تقدم الصبى ليصعد معهم فبلغ نافذة بنت أمير النهرين فقبلته واحتضنته . وذهب رجل يبشر بذلك أباها قال لقد بلغ أحد الرجال نافذة ابنتك فسأل الأمير قائلا : ابن من من العظماء هو ! فقيل له ابن ضابط جاء هاربا من أرض مصر من زوجة أبيه ، فإذا أمير النهرين يغضب غضباً شديداً وقال : أترانى أعطى ابنتى لهارب من أرض مصر ، مروا فليرجع ، وجاء من يقول له اذهب من حيث أتيت ولكن الفتاة أمسكت به وأقسمت بالاله قائلة : بحق رع حراختى لئن أخذتموه منى فلن آكل ولن أشرب ولأقتلن نفسى فى الحال . فذهب الرسول ليبلغ

كل ما قالت لأبيها فأرسل اليه جماعة لتقتله فى مكانه، فقالت البنت بحق الشمس لئن قتله أحد فلن تغرب الشمس حتى أقتل نفسى ولن أعيش ساعة بعده . فذهبوا فرووا ذلك لأبيها . فاستدعى أبوها الفتى مع ابنته إليه فخلت هيبته على الحاكم الذى احتضنه وقبله . ثم قال له : حدثنى كيف حالك فأنت فى منزلة ابنتى فقال له ، إننى ولد ضابط من أرض مصر ماتت أمى وتزوج أبى أخرى ، وقد حدث أن كرهتنى فأتيت إلى هنا فرارا منها ، فكان أن أعطاه ابنته زوجة له ومنحه بيتا وحقولا ، وكذلك ماشية وكل شىء طيب .

فلما مضت أيام كثيرة على ذلك قال الفتى لزوجته : إننى محتوم لثلاثة مصائر التمساح أو الثعبان أو الكلب فقالت له ، مر فليقتل الكلب الذى يتبعك ، فقال لها لن أسمح بقتل كلبي الذى ربيته ، إنه كولدى ، فكان أن سهرت على حراسة زوجها ولم تعد تسمح له بالخروج وحده .

ثم عاد الأمير إلى بلاده ، وكان فى المدينة التى يعيش فيها بحيرة فيها تمساح وكان فيها رجل قوى . وكان الرجل القوى لا يسمح للتمساح بالخروج ، فإذا نام التمساح خرج الرجل القوى يتجول ، حتى إذا طلعت الشمس وقفا وجها لوجه وظل ذلك كل يوم لمدة شهرين . ومضت على ذلك أيام ، وكان الفتى جالسا فى بيته مرحا ، فلما أقبل الليل اضطجع الفتى فى فراشه وحل النوم فى أعضائه جميعاً ، وكان أن ملأت زوجه وعاء عسلا وآخر جعة ، وإذا ثعبان يخرج من جحره ليعض الفتى ، ولكن زوجته جلست إلى جانبه ساهرة لا تنام ، وقدمت الخادمة وعاء الجعة إلى الثعبان فشرب حتى سكر ونام وانقلب على ظهره فقطعته الزوجة إربا بفأسها ثم أيقظت زوجها وقالت له : انظر لقد سلم إليك ربك أحد مصائرك فى يدك وسوف يفعل ذلك بالآخرين ثم صلت لرع وعبدته وسبحت بقوته كل يوم .

ثم مضت على ذلك أيام ، وخرج الفتى يتنزه فى ضياعه . وتبعه كلبه

الذى قصد البحيرة ونزل اليها لجرى وراء كلبه لحمله التمساح إلى حيث الرجل القوى ثم قال التمساح للفتى : إننى مصيرك الذي يتعقبك . ولكن انظر سوف أخلى سبيلك .

وتتمزق البداية هنافلا نكاد نتبين منها شيئا ولكن الراجح أن الأمير قد نفذ فيه قضاؤه بأن جنى عليه كلبه جناية أودت بحياته عن غير قصد وبذلك نفذالقضاء المحتوم .

* * *

قصة القضاء المحتوم الذى لا مفر منه ولا مناص وقد يسعى الإنسان إليه فى فراره منه ، كتب فيه المصريون هذه القصة قبل أن يكتب اليونان « أوديب » بقرون وقرون ونقرأ القصتين فنشعر أن القصة المصرية قد عبرت البحر إلى اليونان لتظهر هناك فى طابع يونانى .

ورد فى قصة أوديب الاغريقية أن لايوس ملك طيبة لم ينجب خليفة له، فلما اشتاق للولد استجابت الآلهة لدعائه ولكنها أنبأته بأن هذا الإبن سيقتله ويتزوج من أمه، وخشى الملك النبوءة فعهد بالطفل إلى أحد عبيده ليلقى به فى مكان ناء على الجبل ، ولكن العبد أعطى الطفل لراع حمله إلى ملك كورنثة الذى لم ينجب كذلك فتبناه .

وشب الطفل وعلم بأمر ذلك القضاء الذى قدر عليه، فحاول الفرار منه بالخروج من كورنثة التى ظنها وطنه ؛ وإنه لفى طريقه إذا به يواجه والده ملك طيبة فى ممر ضيق فيقتتلان على أسبقية المرور فيقتله وهو لا يعرفه ولا يعرف أنه قد حقق الشق الأول من النبوءه .

وواصل أوديب سيره إلى طيبة ، حيث وجد الناس فى هلع من شراسة الاسفنكس التى أقامت على صخرة عالية ، وطفقت تلتهم كل من يعجز عن حل لغز طرحته عليهم ، فاتفقوا أن من حل اللغز وخلص طيبة من نقمة الاسفنكس حق له الظفر بعرش طيبة الشاغر ويد ملكتها الأرملة .

وقدر لأوديب أن يحل اللغز ، فاستحق العرش وتزوج من جوكاست دون أن يدرى أنها أمه . . وبذلك نفذ القضاء الذى انتهى آخر الأمر نهاية مفجعة .

فالقصتان تشتركان فى هدف واحد هو القدر النافذ ، وتشتركان كذلك فى كثير من الوقائع اشتراكا عجيبا .

فلقد كان كل من ملك مصر وملك طيبة يشتاقان للولد فأنذرتهما الآلهة بأن هذا الولد الذى يتمنيانه لن يعمر بخير وأن المصائب التى سوف يتعرض لها ستجعله يتمنى لو لم يولد؛ ويخشى الملكان النبوءه ، فأما الملك المصرى فقد ابتنى لولده قصراً نائيا فى الصحراء ليعيش فيه ، وأما الملك الإغريقى فقد اختار لابنه أيضا مكاناً نائياً ليموت فيه ولكنه عاش وتعود القصتان فتلتقيان فى أن كلا من الولدين غادر وطنه وواجه مشكلة استعصى على غيره حلها ونجح هو فى ذلك ، فأما المشكلة المصرية فهى الصعود إلى نافذة عالية لفتاة جميلة وأما المشكلة الأغريقية فهى لغز طرحته الاسفنكس التى تقيم فى مكان مرتفع كذلك .

وتلتقى القصتان مرة أخرى فى أن جائزة كل من الأميرين الفائزين كانت الزواج ، هذا فضلا عن أن الخطر الذى تعرض له أوديب ونجا منه وهو الأسفنكس تعرض لمثله الأمير فنجا منه — وهو التمساح — مع فارق البيئة والعقيدة فى البلدين ، ثم تنتهى القصتان بالقضاء الذى قدر عليهما من قبل .

وبعد فهل رأينا كيف عبر الأدب المصرى والقصص المصرى القرون والحدود ليكون إلهاما بل قبسا لمن حولنا من الشعوب بغير خلاف كبير إلا ما يحدثه اختلاف البيئة والعقيدة من بلد إلى بلد ومن زمان إلى زمان ؟

قصة ون أمون

قصة هى أكبر الظن حديث لرحالة يروى ماقد وقع له من الأحداث والخطوب ، ولكنها مع ذلك قد لقيت من عناية الكاتب فأضاف إليها من أساليب القصة وعناصرها ماخرج بها عن أن تكون تقريرا يرويه رحالة إلى سادته الذين كلفوه بالرحلة .

كانت مصر دائما فى حاجة إلى أخشاب الأرز من لبنان ، ولم تكن أيام عزها وقوتها لتجد مشقة فى الحصول عليه ، إذ كان أمير بيلوص على استعداد دائم لامدادها بما تريد على أن تؤدى ثمن ماتشترى . ولكن مصر على عهد رمسيس الثانى عشر عام ١١٠٠ ق .م. لم تعد تلك القوة التى يسرع إليها الملوك والأمراء يبتغون إليها الوسيلة ويحرصون على مرضاتها، فقد ضعف فيها رمسيس ضعفا لم يجعل له من الملك إلا اسمه ، وانحسر سلطانه عن عاصمته طيبة ذاتها ، فكان صاحب النفوذ الأعلى فيها كاهن أمون الأكبر حريحور ، على حين آلت تانيس أقوى مدن الشمال إلى أمير يقال له نسوبانبدد (سمندس) وزوجته تنتامون ؛ وتقسمت سائر أقاليم مصر بين حكام صغار .

وكانت السفينة المقدسة — « أو سرحات » — التى كان الاله أمون فى طيبة يتخذها فى أعياده قد بليت وأصبحت لتجديدها فى حاجة إلى أرز لبنان ، غير أن طيبة يومئذ قد كانت فى حالة سيئة من الافلاس المالى والأدبى جميعا ، فلم يكن لديها من المال ولا النفوذ ماتحصل بهما على ماتريد من الأخشاب لبناء السفينة ، لذلك فقد جمع المال تبرعا من حكام الأقاليم فى مصر ، كما توسلوا بالاله أمون فأرسلوا تمثال «أمون الطريق طريق» إلى بيلوص لعله يعينهم على

مايبتغون ، ومعه موظف من المعبد هو«ون أمون» ، ومع ذلك فقد بلغ الفقر أن ترك يتكفف المحسنين للقيام برحلته ، وحمل بالرسائل إلى نسوبا نبدد وتنتامون لكى يعيناه على مواصلة الرحلة إلى بيلوص .

على أن هذه الوثيقة إنما تقدم لنا صورة لمصر ولشرق البحر المتوسط فى القرن الحادى عشر من قبل مولد المسيح ، وما كان بينهما من العلاقات والمعاملات التجارية كأنها بعض فصول الأوديسية ، وذلك فى الأسلوب الذى عرف فى الدولة الحديثة من حيث السهولة والبساطة .

* * *

فى العام الخامس ، فى اليوم السادس عشر من الشهر الثالث من فصل الصيف ، فى هذا اليوم رحل ونامون كبير ديوان أمون صاحب الكرنك كى يجلب الأخشاب للزورق العظيم المقدس لأمون رع ملك الآلهة الذى على النهر . . . « أو سرحات أمون » .

ويوم وصلت تانيس مقر نسوبا نبدد وتنتامون سلمتهما رسائل أمون رع ملك الآلهة ، فلما قرئت عليهما قالا سنفعل مايقول أمون رع ملك الآلهة ، فمكثت حتى كان الشهر الرابع من الصيف فى تانيس ، ثم أرسلنى نسوبا نبدد مع قائد السفينة منجبيت . وفى أول أيام الشهر الرابع من الصيف نزلت إلى البحر السورى العظيم فوصلت إلى « دور » إحدى مدن الثكر فأمر أميرها بدر فأحضر إلى خمسون رغيفا ووعاء من نبيذ وفخذ ثور .

ولكن رجلا من سفينتى هرب وسرق :
من الذهب . . . أوانى تبلغ خمسة دبنات .
ومن الفضة أربع أوانى تبلغ عشرين دبنا
ومن الفضة ملء حقيبة يبلغ ١١ دبنا

أي خمسة دبنات من الذهب وواحدا وثلاثين دبنا من الفضة .فنهضت هذا الصباح إلى حيث كان الأمير فقلت له : لقد سرقت في مينائك ، ولما كنت أنت أمير البلاد وحاكمها فابحث لي عن أموالي ، والحق ان الأموال إنما هي لآمون رع ملك الآلهة ورب البلاد وهي لنسوبانبدد ،وهي لحريحور سيدي وغيره من علية القوم في مصر . . . وهي لثكر بعل أمير بيلوص فقال لي : تغضب أم ترضى ، انني لاأفهم شيئا مما تقول لي ، لو كان اللص من رعايابلادي ذلك الذي صعدإلىسفينتك فسرق أموالك لرددتها عليك من خزائني حتى يظهر ذلك اللص المذكور ، ولكن اللص الذي سرقك رجل لك وينتمي لسفينتك ، فانتظر معي أياما لعلي أبحث عنه .

فكان أن أنفقت تسعة أيام رسوت فيهافي الميناء ثم ذهبت إليه فقلت : نظو إنك لم تجد أموالي ولذلك فسوف أرحل بالربان مع من يرحل . . .

[ورحل ونامون بعد مناقشة حامية وقعت بينهوبين الأمير إلىصور ، ثم واصل رحلته إلى بيلوص ليلتقي بأميرهاثكر بعل ، وتشاء الأقدار ان يلتقي فيطريقه بطائفة من قبائل الشكر ومازال يبحثعن اللص الذىسرق أمواله فيظن نفسهمحقافي تعويض نفسهمنأموال هؤلاءغصبا] قال : «فوجدت معهم ثلاثين دبنا من الفضة أخذتها . فلما أصبحت قلت لهم لاشك أنها أموالكم ولكنها باقية معي حتى أجد أموالي . »

[ولم يرحب ثكر بعل امير بيلوص بزيارة ونامون بعدالذي ارتكب من غصب رجال الشكر اموالهم] فأرسل امير بيلوصإلى يقول : اخرجمن مينائي فأجبت . . . دع الناس إذا ابحروا يأخذوني إلى مصر . . . وانفقت تسعة عشر يوما في الميناء فظل كل يوم يرسل إلى قائلا اخرج من مينائي .

ثم كان وهو يؤدي القرابين لآلهته أن جذب الآلهة واحدا من كهانه ،

وإذا كاهنه يصبح مجذوبا فقال : احضر الاله إلى هنا ، احضر الرسول الذى هو عنده، إن أمون هو الذى امره بالمجىء ، وظل المجذوب مجذوبا طوال الليل ، وقد كنت عثرت بسفينة تريد مصر ، فطفقت احملها بما كان لى وأنا انتظر الظلام قائلا إنه ماأن يخيم علينا حتى أنقل الاله فلا تبصره عين .

غير أن مدير الميناء أقبل علىّ يقول : أقم حتى يقبل الصبح بأمر الأمير فقلت له : ألست أنت الذى ما برحت تأتينى قائلا : اخرج من مينائى؟! فما قولك أقم الليلة الا لتدع السفينة التى وجدتها ترحل ثم تأتينى لتقول مرة أخرى اخرج ، فذهب فأخبر الأمير ، فاذا بالأمير يرسله إلى قائد السفينة يقول أقم حتى الصباح بأمر الأمير .

فلما أن أسفر الصبح أرسل إلى من أخذنى اليه، على حين كان الاله مستقرا فى خيمته حيث كان على شاطىء البحر ، فوجدته جالسا فى ديوانه وقد أولى ظهره للشباك وأمواج البحر السورى العظيم تتلاطم من خلف عنقه . فقلت له : سلام أمون فقال لى : كم يوما أنفقتها منذ أقبلت من مقر أمون ، فقلت خمسة أشهر سويا حتى الآن فقال لى : انظر أصادق أنت ، فأين إذن كتب أمون التى معك وأين رسالة كاهن أمون الأكبر الذى معك؟ فقلت له لقد سلمتها الى نسوبانبدد وتنتامون ، فغضب غضبا شديدا وقال لى : انظر إن الكتاب والرسالة ليسا معك، فأين إذن سفينة الأرز التى أعطاكها نسوبانبدد وأين بحارتها السوريون ، لا شك أنه لم يسلمك إلى قائد السفينة هذا لكى يقتلك ويلقيك فى البحر ، ومن أين إذن أتوا بالاله ، وأنت من أين جاءوا بك .

قال لى ذلك فأجبته ، ولكنها سفينة مصرية وبحارتها مصريون يبحرون من أجل نسوبانبدد وليس عنده بحارة سوريون ، فقال لى : أليس هنا

يعبرون سفينة في ميناى لها علاقات مع نسوبانبدد ، وفى حيدون هذه حيث تذهب، أليست هناك خمسون سفينة لها علاقات مع وركاتل[1] وتتخذ طريقها إلى داره ؟

وظللت صامتا فترة طويلة فأجاب قائلا : لأى نوع من الأعمال جئت إلى هنا ، فقلت : لقد جئت فى طلب الخشب للسفينة المقدسة العظمى لآمون ملك الآلهة وكان أبوك يزودنا به وأبو أبيك يزودنا به وسوف تفعل أنت ذلك أيضا ، فلما قلت له ذلك قال : لقد كانوا يفعلون ذلك حقا ، ولو انك أعطيتنى الوسيلة لفعلت ، ولقد فعل رعاياى هذه المهمة ، غير أن فرعون أرسل (اليهم) ست سفن محملة ببضائع مصر أفرغوها فى مخازنهم ، أما أنت فماذا أحضرت لى ؟

ثم كان أن أمر باحضار سجل آبائه اليومى وجعله يقرأ أمامى فوجد ألف دبن من الفضة فى سجله فقال لى : لو كان حاكم مصر سيد أملاكى وأنا خادمه لما أرسل فضة ولا ذهبا ولقال : نفذ مهمة أمون ، ولم يكن هدية[2] ذلك الذى أرسل إلى أبى ، ولست خادمك ولا خادم الذى أرسلك، على أنى إذا دعوت لبنان لفتحت السماء وإذا الأشجار مكدسة عند شاطىء البحر ، هيا أعطنى الشرع التى اتيت بها لتقود سفنك محملة بالأخشاب ، واعطنى الحبال التى جئت بها لربط الأشجار التى تقطع من أجلك . . .

لقد خلق أمون البلاد جميعا ، خلقها ولكنه خلق قبل كل شىء مصر التى أقبلتَ منها . وهى التى خرجت منها الفنون لتصل إلى بلادى، ومنها خرجت الحكمة لتصل إلى بلادى . ولكن ما هذه الرحلات السخيفة التى جعلوك تقوم بها ؟!

---

(١) هى بركة إيل
(٢) وإنما كان ثمن ما كان يشترى

فقلت له : ليست سخيفة تلك الرحلات التى أخرج فيها . فما من سفينة على الماء ليست لآمون . فان له البحر وله لبنان التى تقول « إنها لى » وهى مزرعة أوسرحات أمون سيدة السفن . والحق أن أمون رع ملك الآلهة قال مخاطبا حريحورسيدى: « ارسلنى » . وقد جعلنى أرحل مع هذا الاله العظيم . ولكن انظر ، لقد جعلت هذا الاله العظيم ينفق تسعة وعشرين يوما منذ حل ميناءك ولم تكن إلا عالما بأنه هنا . أليس هو كما كان دائما ؟ ومع ذلك فأنت تنهض فتساوم على لبنان أمون سيدها .

أما عن قولك : إن الملوك الأولين إنما أرسلوا الفضة والذهب ، فانهم لو ملكوا الحياة والصحة لما أرسلوا بضاعة . وإنما أرسلوا البضاعة الى آبائك بدلا من الحياة والصحة . أما أمون رع ملك الآلهة فانه رب الحياة والصحة كما كان رب آبائك الذين أنفقوا حياتهم يقدمون القرابين إلى أمون وأنت كذلك خادم أمون . فاذا قلت سأفعل لآمون وصدعت بأوامره فسوف تحيا وتكون صحيحا سليما ، وتكون محسنا لبلادك كلها ولرعاياك . ولكن لا تشته لنفسك شيئا لآمون رع ملك الآلهة . فان الأسد يحب ماله .

مر إذن فليؤت بكاتبك فإنى مرسله الى نسوبانبدد وتنتامون والحكام الذين عينهم أمون على شمال البلاد ، وسوف يرسلون اليك كل مايلزم . وسوف أكتب اليهم بقولى : أرسلوا ذلك حتى أعود الى الجنوب فأرد اليك ما أنا لك به مدين . ذلك ماقلت . فوضع الكتاب فى يد رسوله ثم حمل السفينة ... وأرسلها الى مصر .

أما رسوله الذى ارسل الى مصر فقد عاد الىّ فى سوريا أول أشهر الشتاء . وقد أرسل الى نسوبانبدد وتنتامون من الذهب أربع أباريق ووعاء ، ومن الفضة أربع أباريق .

ومن أثواب الكتان الملكى عشر قطع

ومن كتان الصعيد الجيد عشر حزم

ومن البردى الدقيق خمسة وخمسين

وجلود الثيران خمسمائة

والعدس عشرين كيسا

والسمك عشرين سلة

كما أحضروا إلىّ كذلك :

من الكتان الصعيدى الجيد خمس قطع

ومن ثياب الكتّان الصعيدى الجيد خمس حزم

ومن العدس كيساً واحدا

والسمك خمس سلال

وفرح الأمير ، وعين ثلثمائة رجل وثلثمائة ثور وعين مشرفين لقطع الأشجار فقطعوها وتركوها مكدسة حيث هى طوال الشتاء ، وفى الشهر الثالث من الصيف سحبت إلى شاطىء البحر وخرج الأمير فوقف عليها وأرسل الىّ قائلا : « أقبل » ، فلما اقتربت منه وقع ظل مروحته علىّ ، فوقف بنامون أحد خدمه بيننا وقال لقد وقع ظل فرعون سيدك عليك ، فغضب عليه وقال : « اتركه أنت وشأنه » ثم اقتربت فاستأنف قائلا انظر إن الأمر الذى كان آبائى يفعلونه قد فعلته ، ولو أنك لم تؤد لى ما كان آباؤك يؤدون ، انظر ، لقد وصل آخر مالك من أخشاب وهو مكدس (هناك) والآن نفذ ما أريد وتعال اشحنه فقد وهبته لك ، ولكن لا تأت لتنظر إلى أهوال البحر ، فإذا نظرت إلى اهوال البحر فانظر إلى أهوالى أنا ، إننى لم أفعل معك ما فعلنا مع سفراء خعمواس وقد أنفقوا سبعة عشر عاما فى هذه

البلاد وماتوا حيث كانوا ، ثم قال لخادمه ، خذه فاطلعه على قبرهم حيث يرقدون، فقلت له: لا تطلعنى عليه ، أما عن خعمواس فقد كان الذين ارسلهم إنسا وكان هو كذلك إنسيا . . . انظر ، لم لا تفرح وتستصنع لك نصبا تقول فيه : أرسل إلىّ أمون رع ملك الآلهة أمون صاحب الطريق رسولا مع ون أمون رسولا إنسيا فى طلب الأخشاب للسفينة المقدسة الكبرى لأمون رع ملك الآلهة ، فقطعتها وشحنتها وجهزت له سفنى وبحارتى وأرسلتها إلى مصر ليبتهلوا إلى أمون من أجلى بخمسين سنة من العمر فوق ما قدر لى . . . فإذا حدث بعد ذلك أن أتى رسول من أرض مصر ممن يعرف الكتابة وقرأ اسمك على النصب فسوف تتلقى الماء فى الغرب كالآلهة التى هنا .

فقال لى : إنه لدرس جليل ذلك الذى قلت .

فقلت له أما عن تلك الأمور الكثيرة التى قلتها لى فإنى إذا وصلت موطن كاهن أمون ورأى أعمالك فإن ما عملت ينبغى أن يتلقى شيئاً .

ثم ذهبت إلى شاطىء البحر حيث كانت الأخشاب مكدسة فلحظت فى البحر إحدى عشرة سفينة آتية وكانت للثكر (الذين قالوا) خذوه أسيرا ولا تجعلوا له سفينة تصل إلى أرض مصر ، عندئذ جلست فبكيت .

ثم أتى إلىّ كاتب الأمير فقال لى : ماذا بك فقلت له : الا ترى الطيور تهبط إلى مصر للمرة الثانية[1] ؟ انظر إليها ، إنها تعود إلى الغدران . فحتى متى أظل هنا مهملا ، فذهب فأخبر الأمير بذلك فأنشأ الأمير يبكى

---

(١) الطيور المهاجرة مما يدل على طول ما بقى ونامون فى الغربة وقد حل موعد هجرتها إلى مصر للمرة الثانية وهو هناك .

للانباء التي رويت له واشتد حزنه ، فأرسل كاتبه إلى فحمل الى كيلين من نبيذ وكبشا كما أنه بعث إلى « تنتنوت وهي مغنية مصرية كانت عنده وقال (لها) عن له ولا تدعى الحزن يستولى على فؤاده وأرسل إلى يقول : كل واشرب ولا تدع فؤادك يستولى عليه الحزن ، ولسوف تسمع كل ما أقول غدا ، فلما أقبل الغد ، دعا حراسه فوقف بينهم وقال للشكر : ماذا يعني مجيئكم هنا ؟ فقالوا له : لقد أقبلنا وراء السفينة المحطمة المحطمة (١) التي ترسلها إلى مصر ، وعليها من بيننا وبينه ثأر يجب أن نسويه فقال لهم ، لا أستطيع أخذ رسول أمون اسيرا فى بلادى ، دعونى أبعده ثم تعقبوه انتم لتأسروه .

ثم انه حملنى على السفينة وارسلنى . . . إلى ساحل البحر ؛ فكان ان قذفت بى الريح إلى أرض ألسا ، فخرج أهـــل المدينة علىّ ليقتلونى فاتخذت سبيلى إلى حيث تقيم حاتب أميرة المدينة فوجدتها تخرج من أحد بيوتها وتدخل آخر لها ، فحييتها وقلت للناس الذين كانوا إلى جانبها : أليس فيكم من يفهم المصرية فقال واحد منهم : أنا أفهمها فقلت له: قل لسيدتى إنى سمعت حتى فى بلدى فى موطن أمون، أن الباطل يرتكب فى كل بلد ولكن الحق قائم فى أرض ألسا ، ولكن الباطل هنا كذلك يرتكب كل يوم فقالت لى : ماهذا الذى تقول؟! فقلت لها : هي أن البحر هاج ودفعتنى الرياح إلى الأرض التى أنت فيها فهل تسمحين أن يقبض على وأقتل ، وأنا رسول أمون ؟ هلمى فانظرى إلىّ، فلسوف افتقد إلى آخر الزمان (٢) ، أما عن بحارة جبيل هؤلاء الذين يبحثون عنهم (٣) لقتلهم ، فماذا عن أميرها إذا وجد عشرة من

(١) دعاء على السفينة بالتحطم ونزول النكبات بها .
(٢) أى سيطلب بثأرى إذا قتلت .
(٣) أى رجال السا .

بحارتك ، ألن يقتلهم كذلك ؟

فاستدعت الرجال فأحضروا . . ثم قالت لى نم فى سلام . . .

[وهنا تتمزق البردية ولا نعرف كيف انتهى أمر وناموون وهل نجح فى نقل الأخشاب إلى مصر . . .]

وبعد فهذه وثيقة تبين لنا صورة لمصر وشرق البحر المتوسط فى القرن الحادى عشر من قبل مولد المسيح ، تحدثنا كيف كان ما بينها من العلاقات السياسية والتجارية جميعا ، وتسرد لنا بعض ما ازدهر فى مصر يومئذ من أنواع الصناعات والمحاصيل، وما كانت تصدره من البضائع والعروض . كانت تصدر ما « تصنعه » من الذهب والفضة وأثواب الكتان والسمك المجفف «المحفوظ » وذلك فضلا عن الجلود وورق البردى الذى كثر تصديره إلى بلبوص (جبيل) ومنها إلى سائر أنحاء العالم القديم ، فإذا هى مركز توزيعه حتى اشتق اسم الكتاب فى اليونانية من اسمها ثم اسم الكتاب المقدس فى سائر اللغات الأوروبية الحديثة .ولقد بلغ حجم التجارة أن كانت تحملها بين مصر وسائر المدن فى شرق البحر المتوسط أكثر من سبعين سفينة كما ذكرت القصة .

فإذا تحولنا إلى سياق القصة ، فقد أعجبنا منها من غير شك ما دار فيها من الحوار وما ثار فيه مع ون أمون من المساجلات والمفاوضات ، مع أمير صور أولا فى تلك المسألة القانونية عن سلطة الحاكم على لص أجنى فى سفينة أجنبية ،ومسئوليته عن رعاياه إذا سرقوا من سفينة أجنبية أن يعوضها عما سرق منها ، ثم ماكان من تبادل الحجج مع أمير ببلوص أثناء المفاوضات على الأخشاب ثم بين أمير ببلوص والشكر عن حصانة ون أمون مابقى فى بلاده ، فإذا غادره فلهم أن يتعقبوه . ثم حديث ون أمون

مع أميرة ألسا آخر الأمر وهو يطلب لنفسه السلامة فى غير ضعف وينصح لها أن تهادن أمير بلبوص (جبيل) .

على أن القصة فى جملتها ، إنما كانت تبشيرا بدين أمون والدعوة إليه ، فى سبيله اجتمعت كلمة ملوك مصر وامرائها ـ على تفرقهم ـ من أجل هدف واحد، وتكبدت البلاد من النفقة والأموال على ما كانت تشكو من الاعسار.

وتريد القصة تبيان ما كان لأمون من المعجزات والكرامات فصورت انجذاب أحد شباب الأمير وتدلهه فجعل يهرف طوال الليل يطلب الترحيب بأمون ورسوله ون أمون ،حتى عدل الأمير عن طرده وأرسل يستبقيه ويدعوه إليه ويفاوضه ، ثم يتصل بينهما الحديث فيعترف بفضل أمون الذى خلق البلاد جميعا .

وكذلك تبرز القصة ما كان لمصر من فضل اعترف به الأمير ، فلها من العراقة السبق ومن الحضارة الخلق والابتكار ، وتعليم الجيران من البلدان والأقطار ، إذ خلقها الاله قبل أن يخلق سائر البلاد ، ومنها خرجت الفنون والصناعات لتصل إلى بلاد الأمير .

صورت القصة هذا كله وهى تروى أسفارون أمون وما لقى أثناء ذلك من المحن والخطوب ، وتعرضه للأسر والقتل وبعده عن وطنه وشوقه له وحنينه إليه حتى تهاوى فجلس يبكى ، وذلك فى لمسات فنية بارعة وهو ينظر إلى الطير تمر به مقبلة من مصر ثم عائدة إليها تحمل إليه الحنين وتشعره بمر الأيام وكر العشى كأنه بذلك يردد قول الشاعر :

أسرب القطا هل من يعير جناحه

لعلى إلى من قد هويت أطير

أو كأننا بهذا كله حيال فصل من فصول الأوديسية وأسفار يوليسيس وهيامه فى البر والبحر .

قراطيس البردى

حوت من آداب المصريين وعقائدهم مايجل عن التقدير. وهذه بردية حفظت لنا فصلا من كتاب الموتى وتصور الحساب فى الآخره

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

الصور والرسوم

صفحة

طبع هذا الكتاب
بمطبعة دار العهد الجديد





